

امراة تبحت عن الفقر

امراة
تبحت عن الفقر
رواية

قاسم محمد كوفحي

الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة

٢٠٢٦

• امرأة تبحث عن الفقر

(رواية)

• قاسم محمد محمود كوفحي

• طبعة أولى 2026

• الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: 0799677569

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2026/9/5285)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	: امرأة تبحث عن الفقر
تأليف	: كوفحي، قاسم محمد محمود
بيانات النشر	: عمان: دار الخليج للنشر والتوزيع، 2026
الوصف المادي	: 220 صفحة
رقم التصنيف	: 813.03
الواصفات:	: / الروايات العربية / العصر الحديث /
الطبعة	: الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• (ردمك): ISBN 978-9923-23-308-5

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

كانت ربما تسير كل صباح في الشارع المؤدي إلى بوابات الجامعة، ذلك الممر الطويل الذي كان، في الماضي، مجرد مسافة تُقطع بين المنزل وقاعة المحاضرات، قبل أن يتحول، مع تعاقب الأيام، إلى مرآة تكشف وجهًا آخر للمدينة؛ وجهًا خفيًا كانت تتمنى ألا تراه، لكنه كان يفرض حضوره عليها بإصرار لا يلين، حتى غدا جزءًا من طقسها اليومي.

في البدايات، كانت تعبره بخطى متسارعة، تتجنب الالتفات إلى جانبه، متظاهرة بأن عينيها غارقتان في شاشة هاتفها، أو بأن ذهنها مشغول بمحاضرات تنتظرها، أو بكتاب لم تُكمل قراءته. لم يكن ذلك انشغالا حقيقيا بقدر ما كان محاولة بائسة للنجاة من مواجهة واقع يثقل القلب. كانت تؤمن، مثل كثيرين، بأن ما لا تنظر إليه لا يملك القدرة على ملاحقتها.

غير أن المتسولين، أو «الشحاذين» كما يسميهم الناس في أحاديثهم العابرة، لم يكونوا تفاصيل زائدة في المدينة، ولم يمروا كأطيافٍ تذوب عند أول التفاتة. كانوا يملؤون الفراغ بصمتهم كما يملؤونه بأصواتهم، كأن الزمن اختار وجوههم ليكتب عليها ما تردد في كتابته على وجوه الآخرين. الأيدي الممدودة لم تكن تشير إلى الحاجة وحدها، وإنما إلى سؤالٍ ظل معلقًا بين الإنسان ونظيره منذ البدايات: من يرى من؟

كانت أصواتهم تشق ازدحام السيارات من غير عنف، ثم تستقر في مكان خفي داخل النفس، حيث الأشياء التي يظن المرء أنه أخفاها إلى الأبد. هناك، في تلك العتمة الداخلية، لم تكن النقود هي القضية، ولا

الفقر وحده، وإنما المسافة التي تتسع كل يوم بين الإنسان وصورته التي يود تصديقها.

كان المارة يعبرون مسرعين، يحمل كل واحد منهم حكاية يراها أثقل من حكايات الآخرين، ومع ذلك ظل أولئك الواقفون على الأرصفة يعيدون ترتيب المشهد بصبر غامض. وجودهم لم يكن يوقف حركة المدينة، وإنما كان يكشف إيقاعاً آخر يسير تحتها، إيقاعاً لا تقيسه الساعات ولا إشارات المرور. وكل عينٍ تقع عليهم كانت تعود إلى صاحبها محملةً بسؤالٍ جديد، سؤالٍ لا يطلب جواباً بقدر ما يترك أثراً يصعب محوه.

كانوا يقفون عند التقاطعات، وتحت الجسور، وأمام المحال التجارية، وبالقرب من إشارات المرور، حتى بدا وجودهم جزءاً من هندسة المدينة ذاتها؛ عناصر ثابتة في المشهد، لا تختلف كثيراً عن أعمدة الإنارة، أو الأرصفة المتشققة، أو أحواض الزهور التي ذبلت منذ زمن ولم ينتبه أحد إلى أنها ما تزال هناك. غير أن الفارق الجوهري كان أن تلك الأشياء جامدة لا تشعر، أما هؤلاء فكانوا بشراً تحولوا، في نظر المارة، إلى تفاصيل مألوفة فقدت قدرتها على إثارة الدهشة، كما لو أن الاعتياد قادر على تحويل المأساة إلى منظر طبيعي.

بدأت ربما تلاحظ، مع توالي الصباحات، أن عددهم يتزايد على نحو يبعث على القلق. كانت وجوه جديدة تظهر كل يوم، حتى خُيِّلَ إليها أن المدينة لم تعد تُنجب أحلاماً بقدر ما تُنجب مزيداً من الفقر،

وكأنها فقدت قدرتها على إنتاج المستقبل، وأصبحت لا تُنتج إلا من ينتظرون صدقة عابرة تعينهم على اجتياز يوم آخر.

لم يعد المشهد حكاية رجالٍ أنهكتهم السنون، أو نساءٍ أثقل الزمن ظهورهن، وإنما اتسع ليكشف وجوهاً أخرى للخذلان؛ شباباً في مستقبل العمر، كان يُفترض أن تكون أيديهم مشغولة بصناعة المستقبل لا بمدّها طلباً للنجاة، وأطفالاً يتنقلون بين السيارات بخفة من ألفوا مخاطر الطريق أكثر مما عرفوا رحابة ملاعب الطفولة، وعائلاتٍ كاملة تفرش الأرصفة بملامح استسلمت لثقل الأيام، كأنها عقدت مع المدينة هدنة قاسية؛ لا تملك القدرة على مغادرتها، ولا تجد في أحضانها مكاناً حقيقياً لها.

كان الرصيف، في تلك اللحظات، يفقد معناه الأول. لم يعد مجرد مساحة عابرة بين طريقتين، وإنما تحول إلى بيتٍ مفتوح على الاحتمالات؛ سقفه سماء لا تحمي، وأثاثه إسفلت يحتفظ ببرودة الليل، وستائره ريح تمرّ دون أن تسأل عمّن ينام تحتها. هناك، حيث تختلط الخطوات العابرة بأنفاس المنتظرين، بدا أن المدينة تكشف وجهاً آخر لا يظهر لمن يمرّون فيها مسرعين؛ وجهاً تسكنه حكايات لا تجد مكاناً سوى الهامش.

كانت ربما تُسرّع خطاها كلما اعترضها هذا المشهد، لا رغبةً في الابتعاد عنهم، وإنما عجزاً عن حمل ذلك الثقل الخفي الذي كان يتركه حضورهم في روحها. كانت تشعر أن عينيها، مهما حاولتا أن تنصرفا إلى جهة أخرى، تعودان إليهم كما لو أن شيئاً أعمق من الإرادة يشدهما

نحوهم. كان الألم يمتلك طريقته الخاصة في الظهور، يستدعي النظرات ممن يهربون منه، ويترك في النفس أثراً لا يغادرها بسهولة.

تسير ريما في ذلك الطريق الذي كان، في زمن لم يعد مذكوراً، وعداً بالمستقبل. ها هو اليوم ممرٌ ضيق بين وجهين: وجه الجامعة التي تعلّم كيف تُفهم الظواهر، ووجه الرصيف الذي يكتفي بأن يُعاش. تتسلل الأسئلة إليها دون استئذان، لا كاستفهامات نظرية، وإنما كخناق خفي يضيق كل صباح: كيف تحولت هذه البقعة الجغرافية من فضاء يعد بالحياة إلى مسرح يختبر قدرة البشر على الاحتمال؟ كيف صار أولئك الغرباء، الذين تمر بجوارهم، مرآيا تعكس هشاشة المجتمع بأكمله، وأسئلة أخلاقية تلاحقها في يقظتها، وتتسلل، بدهاء الأحلام، إلى فراشها الليلي؟

في البدء، كانت ريما تنظر إلى المشهد بعيون طالبة درست في قاعاتها أن الفقر مجرد نتاج لتفاوت طبقي، أو خلل في شبكات الحماية، أو هزيمة سياسية تنتظر من يملك شجاعة الإصلاح. كانت تلك التعريفات تبدو، هناك، بين جدران المحاضرات، أنيقة ومقنعة، حيث تتحول معاناة البشر إلى نماذج تحليلية ورسوم بيانية. لكن هذه النماذج تفقد منطقيتها فور خروجها من الإطار النظري، حين تصطدم بوجه حقيقي على الرصيف. فعندما تلتقي ريما بعيني طفل يجلس هناك، لا ترى حالة اجتماعية أو رقماً في تقرير سنوي؛ ترى كائنًا صغيراً يحمل في صمته أسئلة لا تسمح لها بالإجابات الجاهزة بالاقتراب.

لم تكن عينا ذلك الطفل تطلبان صدقة. كانتا تطلبان شيئاً آخر، أكثر تعقيداً وأكثر بساطة في الآن نفسه: اعترافاً صامتاً بوجوده، إشارة إلى أنه مرئي في عالم اعتاد المرور بجانبه كما يمر المرء بجانب جدار. كانت نظرتة تقول ما تعجز الكلمات عن قوله، «أنا هنا، لست مشكلة تنتظر الحل، و لست إحصاءة في ملف مهمل. أنا إنسان له حكاية و ذكرى و خوف و حلم مؤجل». تلك النظرات، و تحديداً نظرات الأطفال، كانت تخترق الجدار الأكاديمي الذي أقامته ربما بينها و بين الألم. كانت تصل إلى منطقة لا تستطيع الأرقام الوصول إليها، منطقة لا تُعرف بالتحليل، و إنما بالارتطام بالضمير. هناك، يواجهها السؤال القديم، السؤال الذي لا يجيب عنه أي كتاب في مكتبتها: ما الذي يجعل إنساناً مسؤولاً عن آلام لم يتسبب فيها؟

ربما، التي ظنت نفسها عقلاً ناقداً قادراً على تفكيك الظواهر، بدأت تشعر، أمام هؤلاء الجالسين على الأسفلت، بحدود العقل نفسه. فالعقل الذي يفسر العالم قد لا يكون الأداة الأكثر فعالية لإنقاذه. التحليل، مهما بلغ عمقه، يصبح فجأة عاجزاً أمام يد ممدودة لا تطلب تفسيراً، و إنما تطلب حضوراً. تلك الأيدي الممدودة، هناك على جانبي الطريق، لم تكن تسأل عن قطعة نقد فقط؛ كانت تسأل عن اعتراف بسيط و معقد: أن تُرى، أن يُصغى إليها، أن تستعيد مكاناً في دائرة الإنسانية التي يقطعها الفقر و النسيان.

مع مرور الأيام، تحولت رحلة ربما الصباحية إلى امتحان أخلاقي لا ينتهي، إلى مواجهة صامتة بين خطواتها السريعة و أجسادهم الثابتة على

الرصيف. كانت تحاول أن تحافظ على تماسكها، أن تواصل سيرها بخطوات حازمة، أن تقنع نفسها بأنها لا تراهم. غير أن عينيها، في خيانة منهجية، كانتا تراهما. و خلف تلك الأجساد التي أنهكها التعب، كانت ترى أرواحاً تحمل ندوباً لا تُرى، و حيوات اختزلت في كف ممدود أو نظرة تبحث عن رحمة عابرة. في كل صباح، كانت تتوقف داخلها أسئلة لا تجد طريقاً إلى الجواب. كانت تتخيل المسارات التي قادت كل واحد منهم إلى هذا الرصيف البارد، كيف بدأت أحلامهم ذات يوم، و كيف تشظت، شيئاً فشيئاً، تحت ثقل الأيام. ربما كان ذلك الرجل المنحني على طرف الطريق، في حياة موازية، مهندساً يخطط للمدينة، أو معلماً يفتح نوافذ المعرفة، أو تاجراً صغيراً يكابد ليصنع مستقبلاً لأطفاله. و ربما كانت تلك المرأة التي تحتضن طفلها تحمل في جوفها صورة حلم مؤجل؛ ربما كانت تتمنى أن تصبح طبيبة، أو فنانة، أو امرأة تعيش حياة لا يطاردها فيها شبح الجوع.

لا تدري ربما إن كانت هذه القصص التي تنسجها في خيالها حقيقية، أم أنها مجرد محاولة يائسة من روحها لتمنح المجهولين أسماء و وجوهاً و ذاكرة. غير أنها تدرك أن هذه التخيلات، مهما كانت مبالغاً فيها، جعلت الألم أكثر قرباً، و جعلت حضورهم في وعيها أكثر قسوة. فهم، في النهاية، لم يعودوا مشهداً عابراً في نافذة السيارة أو على جانب الطريق. صاروا سؤالاً مفتوحاً عن هشاشة المصير، عن تلك الحدود الواهية التي تفصل، في لحظة، بين من يملك القدرة على الاختيار و من تدفعه الحياة، دون استئذان، إلى هامش لا يعرفه أحد.

قبل أن يحدث شيء في الخارج، كان شيء آخر يتبدل في داخل ريماء. مع كل يوم تمضي فيه تاركة المشاهد خلفها، كان الصمت الذي احتمت به يتراكم في أعماقها حتى غدا أثقل من قدرتها على حمله. لم يعد الصمت درعاً، وإنما صار سؤالاً يلازمها، كأن الامتناع عن النظر يترك أثراً لا يقل وجعاً عن النظر نفسه.

وجاء صباح لم يحمل علامة استثنائية. المدينة كانت تمضي بإيقاعها المعتاد، والسيارات تعبر، والوجوه تتبادل استعجالها اليومي. وحدها ريماء توقفت. لم يكن التوقف استراحة في الطريق، وإنما انشقاقاً صغيراً في الزمن، كأن الأرض سحبت منها يقينها القديم، أو كأن خطوة واحدة رفضت أن تكتمل. ومن مكان لا تعرفه، ارتفع في داخلها صوت هادئ لا يأمر ولا يفسر، واكتفى بأن يقول: «ليس هذه المرة.»

على حافة الرصيف جلس طفل، في السادسة تقريباً. لم يكن أحد يجلس إلى جواره. بين يديه كوب بلاستيكي يكاد يخلو من كل شيء، وفي عينيه سكون أربكها أكثر مما كانت ستربكها الدموع. لم يكن السكون غياباً للمشاعر، وإنما هيئة أخرى لها؛ هيئة يولدها الاعتياد حين يصبح الانتظار لغة، ويغدو الحرمان جزءاً من ترتيب العالم. كان ينظر إلى المارة كما لو أنه يعرف مسبقاً أن الطريق لا يتوقف لأحد.

شعرت ريماء أن المسافة التي بنتها بينها وبين العالم بدأت تتداعى بصمت. الكلمات التي استعانت بها طويلاً فقدت لمعانها. الأرقام، والإحصاءات، والأبحاث، والمحاضرات، والشهادات المعلقة على جدران عمرها، جميعها بدت كأنها تقف خارج هذه اللحظة، عاجزة

عن العبور إليها. كان الطفل حاضراً بطريقة لا تحتاج إلى برهان، وصمته يطرح أسئلة لا تعرف الكتب كيف تصوغها.

انحنت ببطء، كما لو أنها تقترب من مرآة ظلت تتجنب النظر إليها سنوات. وضعت بعض النقود في الكوب، ثم أدركت أن الحركة كلها لم تكن سوى تفصيل صغير. شيء آخر كان يحدث بعيداً عن اليد. شعرت أن الطفل انتزع منها يقيناً قديماً، وأعاد إليها إحساساً كانت تظنه قد ذاب في زحام الأيام. لعل الإنسان لا يقترب من معنى إنسانيته عندما يفسر الألم، وإنما عندما يسمح له بأن يترك أثره فيه. رفعت عينيها إليه، وابتسمت.

لم تكن ابتسامة عطف، ولا رغبة في تبرئة الذات. كانت اعترافاً صامتاً بأن هذا الوجه ليس عابراً، وأن وجوده لا يحتاج إلى تفسير كي يستحق أن يُرى. للحظة قصيرة، بدا أن العالم يستعيد اسمه الأول، وأن الإنسان يكفيه أحياناً أن يقع داخل عين أخرى حتى يخرج من عزلته. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد الطريق هو الطريق. الرصيف الذي اعتاد أن يكون امتداداً للإسفلت صار يحمل ذاكرة خفية، والمدينة التي كانت تبدو شبكة من الشوارع أخذت تكشف عن طبقات أخرى، وجوهاً كانت موجودة دائماً، لكنها لم تكن مرئية إلا لمن يتوقف.

أدركت ربما أن التوقف ليس انقطاعاً عن الحركة، وإنما طريقة مختلفة للسير. المدن لا تخفي أسرارها، نحن الذين نعبرها بسرعة تجعلها صامتة. وكلما أسرع الإنسان، ازداد اقتناعاً بأنه رأى كل شيء،

بينما يفوته الشيء الوحيد الذي كان ينتظره.

للمرة الأولى، لم تشعر أنها تعبر المدينة، وإنما شعرت أن المدينة تعبرها هي. لم تعد غريبة عن المشهد الذي ظلت تراقبه من بعيد، ولم تعد قادرة على الوقوف خارجه. كانت داخله منذ البداية، غير أن الاعتراف يحتاج أحيانًا إلى لحظة تأخر، وإلى خطوة تتوقف في المكان الذي اعتادت أن تمضي عنه.

وخُيِّلَ إليها أن الوجوه المنتشرة على الأرصفة لم تكن تنظر إليها وحدها، وإنما تنظر إلى كل من يعبر مسرعًا. لم تحمل تلك النظرات لومًا ولا رجاءً. كانت تشبه انتظارًا قديمًا، انتظار أن يلتقي إنسان بإنسان، دون وسائل، ودون تفسير، ودون أن يحول أحدهما الآخر إلى فكرة. ففي لحظة الاعتراف تلك، تستعيد المدينة ملامحها، ويستعيد العابر اسمه، ويصبح الطريق أقل وحدة مما كان.

أدركت ربما أن أكثر أشكال الفقر قسوة لا يبدأ عند خلو اليد، وإنما عند اللحظة التي يغدو فيها الإنسان غير مرئي، يعبر بين الوجوه كما لو أن وجوده لا يترك أثرًا في الهواء. ولهذا بدا توقفها أقل شبهًا بالعطاء، وأكثر شبهًا باعتراف مؤجل؛ اعتراف بوجود الطفل، وفي الوقت نفسه بوجود جزء منها ظل طويلًا ينتظر أن تستدعيه.

ومنذ ذلك الصباح، أخذ العالم يتبدل من غير أن يتغير. الشوارع هي نفسها، والإشارات نفسها، والوجوه التي تعبر كل يوم لم تستبدل وجوهها. وحدها العين التي تنظر كانت قد صارت أخرى. لم يعد أولئك الجالسون على الأرصفة مادةً لبحث، ولا أرقامًا تتنقل بين

الجداول، ولا صورًا عابرة يبتلعها ازدحام المدينة. صار كل واحد منهم مرآة صغيرة، تكشف لها ما بقي مخفيًا فيها أكثر مما تكشف له هو. وكان سؤال يتسلل إليها كلما التقت نظراتها بأحدهم، سؤال لا يبحث عن جواب، وإنما يفتح بابًا آخر:

«من أنت؟»

هل تكفي المهنة لتعريف الإنسان؟ وهل تستطيع اللغة التي تشرح العالم أن تحمي صاحبها من صمته؟ وهل تكفي المعرفة كي يصبح المرء قريبًا من الحياة؟

كانت الأسئلة تنمو ببطء، كما تنمو الشقوق في حجر يبدو متماسكًا من الخارج. لم تعد الكتب تمنحها الطمأنينة نفسها، ولا القاعات الأكاديمية قادرة على إغلاق ذلك الفراغ الذي اتسع في داخلها. بدا لها أن بعض المعارف لا تسكن الصفحات، وإنما تنتظر عند منعطف لا يخطر في بال أحد.

وصارت تلتقط أجوبتها من التفاصيل التي كانت تهملها من قبل؛ من يد امتدت في صمت، ومن وجه أرهقه الانتظار، ومن عينين لا تطلبان أكثر من لحظة حضور. كأن الحاجة الأعمق لم تكن رغبةً ولا قطعة نقد، وإنما أن يجد الإنسان شاهدًا على وجوده.

ثم جاء يوم جلست فيه إلى جوار رجل مسن اعتادت أن تراه في المكان نفسه. كان حضوره يشبه جزءًا من الرصيف، حتى إن المدينة بدت وكأنها رتبت مكانه منذ زمن بعيد. لم يكن يتحدث كثيرًا، وكانت

عيناه تحملان ذلك التعب الذي لا يعود إلى يوم واحد، وإنما إلى عمر كامل اختصر نفسه في نظرة.

لم تكن تعرف لماذا جلست. لم يكن لديها ما تقوله، ولا ما تفعله. كانت تمضي وراء إحساس غامض، كأن الطريق الذي قادها سنوات إلى الجامعة أراد، للمرة الأولى، أن يقودها إلى مكان آخر.

واكتشفت أن المعرفة التي جمعتها طوال عمرها لم تكن ناقصة، وإنما كانت تنتظر ما يوقظها. فالكلمات لا تصبح حكمة لمجرد أنها صحيحة، وإنما حين تجد وجهًا تستقر عليه.

جلست إلى جواره في صمت.

في البداية أحست بثقل نظرات المارة، ثم لم تعد تعرف إن كانوا ينظرون إليها فعلاً، أم أنها كانت ترى نفسها بعين لم تألفها من قبل. شيئاً فشيئاً، خفّ ذلك الثقل، وحل محله هدوء لا يشبه الانتصار، وإنما يشبه الوصول.

التفت الرجل إليها، وابتسم.

كانت ابتسامة صغيرة، بالكاد تُرى، ومع ذلك فتحت مساحة واسعة من الصمت. لم تقل شيئاً، ولم تطلب تفسيراً. بدت كما لو أنها تعرف أن الإنسان لا يحتاج دائماً إلى من يغيّر مصيره؛ أحياناً يكفيه أن يجلس أحد إلى جواره دون استعجال.

ولم يتبادلا إلا كلمات قليلة، حتى بدا الكلام زائداً عن الحاجة. كان الصمت يتحرك بينهما بخفة، يصنع لغة لا تعتمد على المفردات،

ولا على البلاغة، وإنما على الحضور. وفي ذلك الحضور أخذت المسافات التي يصنعها البشر بينهم تتلاشى، كما يتلاشى الضباب حين لا يعود أحد يراقبه.

هناك أدركت أن الكرامة لا تستمد معناها مما يملكه الإنسان، ولا مما يكتبه على بطاقة التعريف، ولا مما يقال عنه. شيء آخر كان يمنحها معناها؛ أن يجد المرء مكاناً في ذاكرة شخص آخر، ولو للحظة عابرة.

وعندما عادت إلى الجامعة في ذلك اليوم، لم يكن أحد قادراً على ملاحظة ما تبدل فيها. المكاتب في أماكنها، والطلاب يعبرون الممرات، والمحاضرات تنتظر مواعيدها. كل شيء ظل كما هو، إلا تلك المسافة الخفية بينها وبين العالم؛ كانت قد اختفت.

أحسّت أن معرفة جديدة بدأت تتشكل في داخلها، معرفة لا تُقاس بعدد الكتب، ولا بعدد السنوات، ولا بما يُكتب في السيرة الذاتية. معرفة تنمو بصمت، كما تنمو الأشجار في الليل، دون أن يراها أحد.

واكتشفت أن الإنسان لا يعرف العالم حين يحيط به تفسيراً، وإنما حين يسمح له بأن يترك أثره فيه. كانت تعرف الفقر منذ زمن، تعرف تعريفاته، وأسبابه، وتحولاته، أما الآن فقد صار له وجه، وصار له نفس، وصار له صمت يشبه الصدى.

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد الفلسفة تبدو لها طريقاً للهروب من الواقع، ولا وسيلة لإعادة ترتيب الأفكار. صارت فعل اقتراب، وجلوساً هادئاً إلى جوار إنسان لا ينتظر خطاباً ولا وعداً. ففي بعض اللحظات، لا

يحتاج العالم إلى من يفسره، وإنما إلى من يشاركه هشاشته.

وأدركت أن الجراح التي لا تجد من يراها تميل إلى الاختفاء في العمق، حيث يصعب الوصول إليها. أما الاعتراف، مهما بدا صغيراً، فقد يكون البداية الوحيدة الممكنة. وربما لهذا السبب كانت العبارة الأكثر صدقاً لا تحتاج إلى بلاغة، وإنما إلى حضور بسيط يقول:

«أراك.»

وهكذا، لم تعد رحلة ريما اليومية إلى الجامعة انتقالاً بين مكانين، وإنما صارت عبوراً من طبقة في ذاتها إلى أخرى. كانت تخرج كل صباح وهي تظن أنها تعرف الطريق، ثم تكتشف أن الطريق يعرف عنها ما لا تعرفه هي. لم يعد الشارع مجرد امتداد للأسفلت، وإنما مساحة يختبر فيها الإنسان مقدار ما يستطيع أن يراه، ومقدار ما يختار أن يغضّ عنه بصره.

كان كل صباح يعيد ترتيب العالم بطريقة خفية. الوجوه التي كانت تمر من قبل بلا أثر أصبحت تتوقف في ذاكرتها، كأنها كانت موجودة دائماً، لكنها لم تكن قد وصلت إليها بعد. أخذت المدينة تكشف عن وجه آخر، وجه لا يظهر لمن يعبرها مسرعاً، وإنما لمن يسمح لخطواته أن تُبطئ قليلاً.

لم يعد أولئك الجالسون على الأرصفة موضوعاً للدراسة، ولا مادةً لنقاش أكاديمي، ولا أرقاماً تنتظر مكانها في تقرير. صار لكل وجه زمنه الخاص، ولكل عين حكاية لم تُروَ كاملة، ولكل صمت معنى لا تقوى

اللغة على احتوائه. كانوا يشبهونها أكثر مما كانت تتصور، مع اختلاف
وحيد رسمته المصادفات، أو القرارات القديمة، أو الأقدار التي لا
يملك أحد حق مراجعتها.

وكانت تعرف أن عددهم لن يتناقص بسهولة، وأن الألم أعمق من
أن تخففه قطعة نقد، أو ابتسامة عابرة، أو لحظة تعاطف. كانت تدرك
أن ما يرى على الرصيف ليس سوى أثر بعيد لشيء أكبر، شيء يمتد في
طبقات المدينة كما تمتد الجذور تحت الأرض، لا تُرى، ومع ذلك
تمسك بكل شيء.

ومع ذلك، كان كل لقاء يترك فيها أثرًا لا يشبه سابقه. لم تكن
تغير العالم، وإنما كانت تشعر أن العالم يغير ترتيبها الداخلي. كانت
المسافات التي فصلت طويلًا بين الفكر والحياة تضيق بصمت، حتى
بدا لها أن الفهم لا يولد دائمًا من التأمل، وإنما من الاقتراب.

واكتشفت أن الفارق بين من يجلس على الرصيف ومن يجلس
خلف مكتب في الجامعة ليس يقينًا ثابتًا كما توهمت يومًا. حياة كاملة قد
تنحرف بخطوة واحدة، وفرصة تأتي لشخص وتتأخر عن آخر، وصدفة
صغيرة تعيد توزيع المصائر كلها. وما بدا لها يومًا حدودًا فاصلة، صار
أقرب إلى خطوط رسمها الزمن بقلم قابل للمحو.

وأخذت ترى أن الإنسان لا يُقاس بما جمعه من معرفة، ولا بما
وصل إليه من مكانة، وإنما بقدرته على الاعتراف بإنسان آخر دون أن
يسأله أولًا عن تاريخه أو موقعه أو فائدته. كانت المسافة بين الرصيف

والجامعة أقصر مما توحى به الخرائط، وأطول مما تستطيع الأقدام قطعه.

ولم يعد حضور المتسولين في المدينة يثير فيها سؤالا عنهم وحدهم. السؤال كان يعود إليها، وإلى المدينة، وإلى الطريقة التي اعتاد الناس أن يوزعوا بها الضوء والظل. كأن كل وجه يقول، من غير كلام، إن ما نخفيه عن أنظارنا لا يختفي، وإنما ينتظر اللحظة التي يفرض فيها حضوره.

وكانت تشعر أن القضية لا تبدأ عند الحاجة، وإنما عند النظرة التي تمنح إنساناً حق الظهور، وتحرم آخر منه. فالكرامة لا تولد من المال، ولا من الوظيفة، ولا من الاسم الذي يحمله المرء. إنها شيء يسبق كل ذلك، ويبقى بعده.

ومع ازدياد الوجوه التي تصادفها كل صباح، كانت الأسئلة تتكاثر في داخلها. كيف تستطيع مدينة أن تلمع بهذا القدر، بينما يتسع فيها الظل؟ وكيف ينجح الإنسان في إقناع نفسه أنه لم يرَ شيئاً، بعد أن تكون عيناه قد امتلأتا بالمشهد؟ ولماذا يبدو الاعتراف بوجود الآخر، أحياناً، أصعب من أي فعل آخر؟

لم تكن تبحث عن إجابات نهائية. كانت تعرف أن الواقع أعقد من أن يُختصر في فكرة، وأن النوايا الحسنة لا تعيد ترتيب العالم. غير أن يقيناً صغيراً أخذ يستقر فيها بهدوء: لن تعود تعبر كما كانت تعبر.

صار التوقف جزءاً من طريققتها في النظر. لم يعد حركة عابرة، وإنما موقفاً صامتاً من العالم. كانت تشعر أن كل لحظة حضور صادقة تقاوم، بطريقتها المتواضعة، ذلك النسيان الذي يحول البشر إلى ظلال.

وعندما كانت تجلس في مكتبها الصغير، ذلك المكان الذي احتضن سنوات طويلة من القراءة والكتابة والبحث، كانت تكتشف أن الجدران لم تعد تغلق العالم في الخارج كما كانت تفعل من قبل. الكتب ما زالت في أماكنها، والأوراق تنتظر، والأقلام تعرف طريقها إلى الصفحات، إلا أن شيئاً خفياً كان قد تبدل.

أمسكت بقلمها، وحاولت أن تعود إلى الجداول، وإلى الأرقام التي تنتظر ترتيبها، وإلى الفقرات التي بقيت ناقصة. غير أن عينيها كانتا تفلتان من الورق، كما لو أن الكلمات نفسها لم تعد تكتفي بالحبر. كانت الوجوه التي التقتها على الأرصفة تستقر في ذاكرتها بهدوء، تظهر بين سطر وآخر، وتدخل إلى صمتها من غير استئذان، حتى بدا لها أن بعض اللقاءات لا تنتهي عندما يغادر الناس أماكنها، وإنما تبدأ هناك، في الداخل، حيث يواصل الإنسان العيش مع ما رآه طويلاً.

كان سؤال واحد يلح عليها بإصرار، سؤال لم تعد قادرة على تأجيله: هل هذا طبيعي؟

هل من الطبيعي أن تمتلئ شوارع المدينة بهؤلاء الأشخاص يوماً بعد يوم، حتى يصبح وجودهم مألوفاً إلى درجة أننا نتعامل معهم كما نتعامل مع الأشجار وأعمدة الإنارة وإشارات المرور؟ هل يمكن أن يتحول الألم الإنساني إلى جزء من المشهد العام فقط لأننا اعتدنا رؤيته؟ أم أن هناك شيئاً أعمق، شيئاً خفياً لا يظهر على السطح، يقف خلف هذه الظاهرة المتنامية؟ شيئاً يتعلق بطريقة بناء المجتمع، وبالعلاقات

بين أفرادها، وبالآليات التي تجعل بعض الناس يسقطون إلى الهامش بينما تستمر الحياة من حولهم وكأن شيئاً لم يحدث؟

كانت ربما تشعر أن حضور أولئك الجالسين على الأرصفة تجاوز حدود القضية الاجتماعية. لم يعودوا موضوعاً ينتظر تفسيراً، وإنما صاروا سؤالاً يتسلل إلى الطريقة التي ترى بها العالم. واكتشفت أن بعض الظواهر لا تستدعي التحليل بقدر ما تستدعي مراجعة صامتة للذات. لم يعد السؤال يقتصر على: «لماذا يحدث هذا؟» وإنما امتد إلى سؤال أكثر إرباكاً: «كيف أصبحنا نعبه من غير دهشة؟»

كان السؤال يقيم في داخلها كما يقيم نبض آخر. لا يرفع صوته، ولا يغيب. كانت تسمعه بين فكرة وأخرى، وفي الفراغ الذي يفصل كلمة عن أختها، وفي اللحظات التي يخيل إليها أنها استعادت صفاءها. وكانت تواجهه بما اعتادت أن تثق به: عقلها، ومناهجها، واللغة التي أمضت سنوات تتقنها. غير أن السؤال كان يفلت من كل إطار، كأن بعض الأشياء لا تُمسك بالمفاهيم.

«أهذا طبيعي؟»

كانت العبارة تعود إليها في أوقات غير متوقعة. ترى طفلاً يفترش الرصيف، فتسألها. تمر بجوار امرأة أنهكها العمر وهي تمد يدها في المطر، فتسألها من جديد. وترتفع الأبراج الزجاجية في الأفق، لامعة وصامتة، فيتردد السؤال بين الزجاج والحجر، من غير أن ينتظر جواباً. وبدأت كلمة «طبيعي» تبدو لها غريبة، كأنها فقدت معناها من كثرة الاستعمال. ما يتكرر لا يكتسب براءة التكرار، وما تألفه العين لا

يتحول بالضرورة إلى شيء يستحق القبول. كان الاعتقاد، في نظرها، أكثر الأفتعة قدرة على إخفاء ما ينبغي أن يوجع.

ولم تعد ترى الفقر قدرًا هبط من مكان مجهول. كانت تشعر أنه أثر متراكم، يشبه الشقوق التي لا تظهر فجأة، وإنما تنمو ببطء داخل الجدار، حتى يأتي يوم يصبح فيه الانهيار مجرد إعلان متأخر عما كان يحدث منذ زمن بعيد.

وصار أولئك الذين يجلسون على الأرصفة يعكسون شيئًا يتجاوز حكاياتهم الخاصة. كانوا يكشفون صورة المدينة وهي تنظر إلى نفسها، وصورة الإنسان وهو يختار، كل يوم، ما الذي يستحق أن يبقى داخل مجال رؤيته، وما الذي يفضل أن يتركه في الهامش.

وكان السؤال الأكثر إلحاحًا لا يتعلق بسبب وجودهم، وإنما بسبب الألفة التي أحاطت بوجودهم. متى فقدت المدينة قدرتها على الارتباك؟ ومتى صار المشهد الذي كان يستحق التوقف مجرد جزء من الطريق؟

تسلل هذا السؤال إلى حياتها المهنية كما يتسلل الماء إلى حجر قديم؛ ببطء يكاد لا يُرى، حتى يصبح جزءًا من بنيته. دخل مكتبها، واجتماعاتها، ومحاضراتها، وجلس إلى جوارها كلما فتحت ملفًا أو كتبت تقريرًا.

كانت تجلس مع زملائها، تستمع إلى نقاشاتهم حول الخطط والميزانيات والبرامج الأكاديمية. كانت تعرف أهمية كل ما يُقال، ومع

ذلك أحست أن شيئاً غير مرئي يجلس في منتصف الطاولة. شيء لا يشارك في الحوار، لكنه يترك ظله فوق الجميع.

وأخذ سؤال صغير يرافقها:

أين يقف الإنسان وسط كل هذا؟

كانت تتأمل كيف تستطيع الجامعة أن تبلغ هذا القدر من الدقة، بينما يحمل الشارع فوضى لا تجد مكاناً لها في الجداول. وكيف يتحول الفقر، داخل القاعات، إلى مفهوم ومؤشر وإطار نظري، ثم يستعيد خارجه وجهه الإنساني، كأن المعرفة نفسها تعيش حياتين لا تلتقيان.

ولم تكن تعفي نفسها من هذا التناقض. كانت تعرف أنها، كلما اشتد عليها القلق، احتمت بالعمل. تفتح ملفاً جديداً، أو تغرق في قراءة، أو تؤجل السؤال إلى وقت آخر. كانت تقنع نفسها أن المعرفة طريق ضروري، وأن الفهم بداية كل تغيير.

غير أن صوتاً هادئاً كان يسبقها في كل مرة.

كيف يمكن الاقتراب من ألم لم تمنحيه وقتاً كافياً ليقرب منك؟
كيف يصبح الفقر موضوعاً للدراسة، إذا بقي الفقير خارج التجربة؟
وهل تستطيع المعرفة أن تظل حيّة إذا لم يمر فيها شيء من حرارة الحياة؟

وكانت تشعر أن المسافة بين النظرية والواقع ليست مجرد مسافة فكرية، وإنما امتحان خفي. فقد يعرف الإنسان الكثير، ويظل عاجزاً عن أن يرى. وقد يحفظ أسماء المفاهيم كلها، ثم يقف مرتبكاً أمام وجه

واحد لا يعرف كيف ينظر إليه.

شيئاً فشيئاً، أخذت تكتشف أن رحلتها لم تعد تتعلق بالفقر وحده. كانت تقترب من حدودها هي؛ حدود الباحثة، وحدود اللغة، وحدود القلب عندما يجد نفسه أمام حقيقة لا يستطيع أن يعيدها إلى كتاب. ثم بدأت الأخطاء تظهر في عملها.

كانت صغيرة، حتى إن غيرها ربما لم يلتفت إليها. رقم في غير موضعه، فقرة ناقصة، تقرير يحتاج إلى مراجعة، لحظة صمت أطول من المعتاد داخل قاعة المحاضرات. لكنها كانت تراها علامات لا تخص الورق، وإنما تخصها هي.

أحياناً كانت تشعر أن أفكارها تتبعثر قبل أن تبلغ الصفحة، وأن الكلمات التي عاشت معها سنوات فقدت قدرتها على الطاعة. يتوقف صوتها فجأة، فتبحث عن عبارة تعرفها جيداً، كما يبحث المرء عن مفتاح ظل طويلاً في جيبه ثم اختفى.

وفي إحدى المرات، اكتشفت خطأً في تقرير أعدته بعناية. وفي مرة أخرى، وجدت أرقاماً لا تنتمي إلى أماكنها. نسيت مفاهيم كانت تستحضرها بسهولة، وتوقفت أمام سؤال طرحه أحد طلابها، لا لأنها تجهل الإجابة، وإنما لأنها رأت خلف السؤال وجهاً آخر، وجهاً جاء من الرصيف وجلس في آخر القاعة.

كانت تنظر إلى الطلاب، فلا تراهم مجموعة تنتظر محاضرة، وإنما أفراداً يحمل كل واحد منهم عالمًا خفيًا لا تعرف عنه شيئاً. وصارت

تشعر أن كل وجه يخبئ قصة، وأن ما لا يُقال داخل القاعات قد يكون أكثر أهمية مما يُقال.

وتكررت الأخطاء.

في كل مرة كانت تقول لنفسها إنها مرهقة، وإن الأمر عابر. غير أن شيئاً في أعماقها كان يعرف أن المشكلة لا تسكن الذاكرة، ولا التركيز، وإنما ذلك الشرخ الذي اتسع بينها وبين حياتها القديمة، حتى لم يعد يسمح لها بأن تعيش في عالمين منفصلين.

لقد فقدت القدرة على الفصل بين حياتها الشخصية وحياتها المهنية، بين ما تراه في الشارع وما تقوله في الجامعة، بين الأسئلة التي تمزقها من الداخل والإجابات التي تقدمها للآخرين بثقة الباحثة. كان العالم الذي كانت تدرسه قد اقتحم العالم الذي تعيش فيه، ولم تعد قادرة على وضع حدود واضحة بينهما.

كانت روحها تقف عند مفترق مؤلم؛ بين عقل يطالبها بالعودة إلى النظام، والاستمرار في أداء دورها الأكاديمي كما اعتادت، والالتزام بالمسؤوليات التي بنت عليها حياتها، وبين قلب يطالبها بالتوقف، بالإنصات، وبمواجهة الحقيقة التي لم تعد قادرة على تجاهلها.

للمرة الأولى، أدركت ربما أن المعرفة حين تلامس الواقع بصدق لا تبقى مجرد أفكار في العقل، ثم تمضي المعرفة في تحولها الهادئ، حتى تغدو عبئاً يقيم في الروح أكثر مما يقيم في العقل. وعند تلك العتبة، يكتشف الإنسان أن الوقوف طويلاً أمام العالم يغيّر الواقف بقدر ما

يكشف له ما يقف أمامه. لم يعد يراقب موضوعاً خارج ذاته، فقد وجد نفسه داخل السؤال نفسه، وأدرك، متأخراً، أن كل حقيقة يقرب منها تتزع منه صورة قديمة، وتتركه أمام أخرى لم يخترها بعد.

وكان السؤال الأعمق، ذلك الذي ظل يطاردها أكثر من غيره، هو السؤال الذي كانت تهمس به لنفسها في لياليها الطويلة، حين يهبط الصمت على الغرفة وتصبح الأفكار أكثر ارتفاعاً من أي صوت: «ماذا يفعل هؤلاء في الشوارع؟»

لم تكن تسأل عن فعلهم الظاهر؛ عن الأيدي التي تمتد طلباً للمساعدة، أو الأجساد التي تجلس على الأرصفة في انتظار عابر يمنحها شيئاً من الرحمة. كان سؤالها يتجاوز المشهد الخارجي إلى جوهره الإنساني: ماذا الذي أوصلهم إلى هنا؟ ما الحكاية التي اختبأت خلف هذه الوجوه الصامتة؟ وما ذلك الخيط الدقيق الذي يفصل بين حياتهم وحياتها، والذي بدأت تشعر أنه ليس بالمتانة التي كانت تتخيلها، وأنه قد يتمزق في لحظة لا يتوقعها أحد؟

كانت تحاول أن تعبر المسافة الفاصلة بينها وبينهم بخيالها. تتخيل حياة كل واحد منهم قبل أن يصبح جزءاً من مشهد الشارع؛ طفولته، أحلامه، اللحظات التي بدأ فيها الطريق ينحرف به تدريجياً نحو الهامش. كانت تحاول أن ترى العالم من خلال أعينهم، وأن تسمع الأصوات التي لا يسمعوها أحد، وأن تفهم كيف يمكن لإنسان أن يستيقظ كل صباح وهو يحمل سؤالاً قاسياً: من أين ستأتي وجبتي اليوم؟ كيف سأحتمي من برد الشتاء؟ ماذا سأقول لطفلي حين ينظر إليّ

ويسألني: لماذا لا نملك بيتًا مثل الآخرين؟

كانت تسأل نفسها: هل وُلد هؤلاء فقراء، أم أن الفقر جاءهم ذات يوم كضيف ثقيل استقر في حياتهم ولم يغادر؟ هل سقطوا بسبب فقدان عمل، أم بسبب مرض لم يجدوا له علاجًا، أم بسبب ظروف عائلية قاسية، أم بسبب سلسلة من الخيبات التي تراكمت حتى أصبح السقوط أمرًا لا يمكن تجنبه؟ هل كانوا، مثلها، يحملون أحلامًا صغيرة وكبيرة؟ هل جلسوا يومًا في مقاعد الدراسة، أو خططوا لمستقبل مختلف، أو ذهبوا إلى أعمالهم وهم يعتقدون أن الحياة تسير في الاتجاه الصحيح؟ أم أنهم وُلدوا في جهة أخرى من العالم، جهة لا تبدأ منها الطرق بالطريقة نفسها؟ جهة تُفتح فيها الأبواب لبعض الأطفال قبل أن يطرقوها، فيما يجد آخرون الأبواب موصدة قبل أن يعرفوا أن للمفاتيح أسماء. هناك، لا يأتي الفقر بوصفه قرارًا، وإنما يصل مبكرًا، يسبق اللغة، ويستقر في الملامح قبل أن يتعلم الإنسان كيف يدافع عن نفسه.

كانت هذه الفكرة تؤلمها لأنها أزالَت المسافة التي ظنت طويلاً أنها تفصلها عن أولئك الذين تجلس إلى جوارهم. أخذت تكتشف أن الفارق بين من يقف في الهامش ومن يبدو مستقرًا في قلب المشهد لا ينبع دائمًا من الكفاءة، ولا من الإرادة، ولا من أي فضيلة يفاخر بها البشر. أحيانًا يكفي منعطف صغير، أو باب لم يُفتح، أو يد لم تمتد في الوقت المناسب، حتى تتخذ الحياة اتجاهًا آخر.

وكانت الأسئلة تواصل طرقها الهادئ، كما يطرق المطر نافذة لا ينتظر أن تُفتح. لم تكن تبحث عن أجوبة نهائية، وإنما عن مكان تقيم

فيه داخلها. كانت تعيد ترتيب ما ظنته ثابتاً، وتترك يقيناتها القديمة تتآكل ببطء، من غير ضجيج.

وفي ذلك الصراع الصامت، أحست أنها لم تعد تقف خارج المشهد كما اعتادت أن تفعل. لم تعد الباحثة التي تراقب الظاهرة من مسافة آمنة. كانت، على نحو لم تتوقعه، جزءاً من الحكاية نفسها. فالمراقبة ليست دائماً حياداً، وأحياناً يصبح الصمت مشاركة لا يعلنها أحد.

وأخذت تدرك أن الجالسين على الأرضفة ليسوا أصل السؤال، وإنما أثره الظاهر. صار السؤال يتجه نحو الذين يعبرون كل يوم، نحو الخطوات المسرعة، والعيون التي تعلمت ألا تتوقف، والحياة التي تمضي وكأنها لا تسمع شيئاً.

ماذا نفعل نحن؟

كيف يستطيع إنسان أن يعتاد وجود إنسان آخر في العراء، ثم يواصل يومه من غير أن يختل شيء في داخله؟

وكيف يتحول وجه بشري، مع الزمن، إلى جزء من المشهد، كما لو كان حجراً أو مقعداً أو إشارة مرور؟

كانت تشعر أن حضورهم يحمل رسالة لا تُكتب بالكلمات. لم تكن الأيدي الممتدة تطلب المال وحده، وإنما تطلب أن يظل الإنسان إنساناً في عين من يراه. كان في كل وجه حكاية لم تجد من يصغي إليها، وفي كل صمت حياة كاملة اختارت أن تختبئ خلفه.

وأخذت تفهم أن مواجهة الفقر لا تبدأ دائماً بالمشروعات الكبرى، مهما كانت ضرورتها. هناك بداية أكثر هدوءاً، وأشد صعوبة في الوقت

نفسه: أن يتوقف المرء فعلاً، وأن ينظر من غير استعجال، وأن يعترف بأن الكرامة لا تزيد ولا تنقص بما يملكه الإنسان، وإنما تسبقه إلى هذا العالم، وتبقى معه حتى آخر الطريق.

وفي أحد الأيام، جلست في مكتبها تحديق في شاشة الحاسوب، دون أن ترى ما عليها. كانت الأصوات تدور من حولها، والجامعة تمضي بإيقاعها المعتاد، إلا أن شيئاً فيها كان يبتعد عن كل ذلك. لم تكن تقرأ، ولا تراجع بحثاً، ولا تبحث عن مرجع جديد. كان هناك اعتراف يتشكل بصمت، ولم يعد يحتمل التأجيل.

مدت يدها إلى مفكرة صغيرة كانت تحتفظ بها في درج مكتبها، وفتحتها كما لو أنها تفتح نافذة ظلت مغلقة سنوات. بدأت تكتب.

لم تكن تكتب ملاحظات أكاديمية، ولا أفكاراً تصلح لتقرير، وإنما كلمات خرجت من مكان لا تعرفه في نفسها.

«ربما كانوا هنا منذ البداية، وربما نحن الذين تأخرنا في الوصول إليهم.

ربما لم يتغير العالم، وإنما تبدلت العين التي تنظر إليه. وربما لم يحملوا المشكلة على أكتافهم، وإنما حملوا السؤال الذي هربنا منه طويلاً.

لعلهم المرأة التي لم نجرؤ على الوقوف أمامها، لأننا كنا نعرف، في مكان بعيد داخلنا، أنها ستكشف ما حاولنا نسيانه.

الحياة لا تُقاس بما نجمعه من نجاحات، ولا بما نعلقه على الجدران من شهادات. هناك شيء أكثر هشاشة، وأكثر بقاءً. أن يستطيع الإنسان أن يرى إنساناً آخر قبل أن يراه عنواناً أو حالة أو رقماً.

وربما تبدأ الفلسفة عندما تتوقف القدم، لا عندما تمتلئ الصفحة. عندما ينحني الإنسان قليلاً، لا ليمنح العالم جواباً، وإنما ليصغي إليه. كانت تكتب كما لو أنها تعثر على نفسها بين السطور. لم تكن الكلمات تتجه نحو الآخرين، وإنما كانت تعود إليها. شعرت أن السنوات التي أمضتها بين الكتب لم تختف، وإنما انزاحت قليلاً لتفسح مكاناً لشيء لم تكن المعرفة وحدها قادرة على منحه.

وعندما أغلقت المفكرة، بقيت تنظر إلى الصفحة الأخيرة زمناً طويلاً. لم تشعر أنها وصلت إلى حقيقة مكتملة. كان إحساسها أقرب إلى من اقترب من باب ظل يبحث عنه سنوات، ثم اكتشف أنه لا يفتح على جواب، وإنما على سؤال أكثر صفاءً.

وأدركت أن بعض الأسئلة لا تأتي لتُحل، وإنما لتعيد تشكيل من يحملها.

وللمرة الأولى، بدا لها أن التحول لا يبدأ من الخارج. يبدأ في تلك اللحظة الهادئة التي يتغير فيها موقع الإنسان، فيغادر مقعد المتفرج، ويقبل أن يكون جزءاً من العالم الذي ظل يراقبه.

عندها فقط، رأت السؤال القديم بصورته الناقصة.

لم يعد: «ماذا يفعل هؤلاء في الشوارع؟»

صار سؤالاً آخر، أكثر اقتراباً، وأكثر إرباكاً:

كيف استطعنا أن نعبر كل هذا الوقت، من غير أن يتغير شيء فينا؟
أما السؤال الحقيقي، فقد كان أكثر قسوة وأكثر عمقاً: «ماذا نفعل نحن في حياتنا الآمنة والمريحة بينما هم هناك؟ ماذا يعني أن نمتلك المعرفة إذا لم تجعلنا أكثر رحمة؟ وما قيمة أن نفهم العالم إذا بقينا عاجزين عن الاقتراب من ألمه؟ وكيف يمكن لنا أن نكون أكثر من مجرد عابرين، أكثر من مجرد باحثين يجمعون البيانات، أكثر من مجرد أشخاص يمرون بجانب الحياة دون أن يلمسوا جوهرها؟»

في تلك اللحظة، أدركت ربما أن بعض الأشخاص لا يعبرون حياتنا كي نعيد تشكيلهم، وإنما كي يكشفوا لنا الأجزاء التي ما زالت تنتظر التحول في داخلنا. وأن أول الطريق نحو تغيير العالم لا يبدأ دائماً باليد التي تمتد إليه، وإنما بالعين التي تتعلم أن تراه.

خرجت من مكتبتها في ذلك اليوم وهي تحمل شعوراً جديداً لا يشبه ما عرفته من قبل. لم تعد تدخل العالم بصفقتها أستاذة جامعية تختزن المعرفة في الكتب، ولا كباحثة تقف خلف جدار التحليل تراقب الظواهر من بعيد. كانت تخرج كنساعة بدأت تدرك أن بعض الأسئلة لا تأتي لكي تجد مكانها في الإجابات، وإنما لكي تجد مكانها في الروح. فثمة أسئلة لا تغلق، وإنما تفتح أبواباً جديدة داخل الإنسان. أسئلة تبقى معلقة في أعماقه، لا تمنحه راحة اليقين، وإنما تدفعه إلى رحلة طويلة من التأمل والمواجهة وإعادة النظر.

وربما لم تكن الحكمة في امتلاك الحلول دائماً، وإنما في القدرة على البقاء أمام الأسئلة حين تصبح ثقيلة. أن يسمح الإنسان للسؤال بأن يقترب منه، أن يزيح بعض الجدران التي بناها حول نفسه، وأن يعيد ترتيب الصورة التي يحملها عن ذاته وعن العالم.

كانت ربما تعرف أن الإنسان لا يتغير حين يصل إلى الإجابة فقط، وإنما حين يترك للسؤال فرصة أن يدخل إلى المناطق التي ظلت مغلقة طويلاً، وأن يوقظ شيئاً كان ينتظر لحظة استيقاظه.

لم تكن تعرف ماذا ستفعل بعد ذلك. لم تكن تملك خطة واضحة، ولا وعداً بأنها ستغير حياة أولئك الذين بدأت تراهم للمرة الأولى كما هم. غير أنها كانت تعرف حقيقة واحدة لا يمكن التراجع عنها: لم تعد قادرة على المرور بجانبهم كما كانت تفعل من قبل، وكأنهم مجرد ظلال تمر على هامش المدينة.

منذ ذلك اليوم، تغيرت الشوارع دون أن تتغير. بقيت الأرصفة في أماكنها، وبقيت الوجوه تعبر المساحات نفسها، غير أن شيئاً في نظرتها كان قد تبدل. لم تعد ترى تفاصيل عابرة في مشهد يومي متكرر. صار لكل وجه زمن لا يعرفه أحد، ولكل عين قصة بقيت خارج الحكايات، ولكل صمت حياة كاملة اختارت أن تختبئ خلفه.

وأصبحت خطواتها نحو الجامعة تحمل معنى آخر. لم تعد طريقاً يقودها إلى مكان العمل فقط، وإنما مساراً يمتد إلى داخلها، يزداد عمقه لا بسبب تعب الجسد، وإنما بسبب روح بدأت تستعيد قدرتها على الإحساس.

اكتشفت أن أصعب أشكال المعرفة ليست تلك التي تتراكم في الكتب، وإنما تلك التي تضع الإنسان أمام مسؤوليته تجاه الآخرين. فحين تنفتح العين على ألم لا تستطيع تجاهله، يصبح الرجوع إلى العمى القديم مستحيلًا. وحين تستيقظ الروح، يصبح الصمت سؤالاً، ويصبح التجاهل اختياراً له ثمنه.

كانت ربما تعمل في عالم الصحافة، ذلك العالم الذي يجمع بين سرعة اللحظة وثقل المسؤولية، بين متعة الاكتشاف وقلق الحقيقة. كانت مهمتها اليومية، كما تحددها لوائح العمل وتعليمات الإدارة، أن تتابع أخبار الجامعة ونشاطاتها؛ تبدأ من رئيسها، ذلك الرجل الذي كان حضوره في كل مناسبة يشبه مركزاً تدور حوله بقية الدوائر. ابتسامات محسوبة، مصافحات رسمية، كلمات معدة بعناية.

ثم يأتي نوابه، كل واحد منهم يسعى إلى الاقتراب من مركز القرار، ثم العمداء الذين يرى كل منهم أن كليته هي القلب الحقيقي للمؤسسة، ثم رؤساء الأقسام الذين يدافعون عن مجالاتهم كما لو أنها كيانات صغيرة لها حدودها الخاصة.

وكان هذا البناء الإداري يبدو لريما أحياناً كهيكل ضخم؛ كل جزء فيه يؤدي وظيفته بدقة، غير أن شيئاً ما كان يغيب عنه. كانت تشعر أن الهيكل قائم، لكن الروح التي تمنحه المعنى ليست دائماً حاضرة.

وكانت الأخبار تسير وفق ميزان مرسوم مسبقاً. لم تكن قيمة الخبر تُقاس بما يحمله من أثر إنساني فقط، وإنما بالمكان الذي يحتله في سلم الاهتمام. كان خبر رئيس الجامعة يتصدر غالباً، وتصريحاته وأنشطته

تمنح المساحة الأكبر، بينما تتراجع أخبار أخرى تحمل وجوهاً وقصصاً ومعاني إلى الصفوف الخلفية، فتختصر، وتُهَمَّش، وتظهر كأنها أقل أهمية.

كانت تجلس في قاعة المؤتمرات، غالباً في الصف الأول، تحمل دفترها ومسجل الصوت، وتتابع كلمات رئيس الجامعة. كانت تعرف قبل أن يبدأ الحديث أن كثيراً من العبارات ستكون مألوفاً؛ لغة التميز، والريادة، وبناء المستقبل، وخدمة المجتمع، والإنجازات المتتالية.

كلمات تبدو كبيرة حين تُقال، غير أن صداها كان أحياناً يتلاشى سريعاً بعد انتهاء المناسبة. كانت تشعر أن بعضها صُمم ليملاً لحظة الحضور أكثر مما يترك أثراً بعدها.

وكانت تكتب كما لو أنها أداة دقيقة لتحويل الصوت إلى نص. تنقل الجمل، تختار الاقتباسات، تصنع مقدمة تجذب القارئ، وتنتهي التقرير بطريقة تترك الانطباع المطلوب. غير أنها في داخلها كانت تشعر بأنها لا تخلق شيئاً جديداً، وإنما تعيد ترتيب شيء سبق أن اكتمل قبل وصولها. كان عملها يشبه خياطاً يعرف تفاصيل الثوب، يحافظ على شكل القماش، ويتقن الخياطة يوماً بعد يوم، لكنه نادراً ما يتوقف ليسأل: من سيرتدي هذا الثوب؟ وما القصة التي بقيت مخفية خلف خيوطه؟

وكانت تغطي الندوات والمؤتمرات التي تستضيفها الجامعة، حيث يجتمع الباحثون لمناقشة موضوعات تمتد من الفيزياء النظرية إلى الأدب المقارن، ومن علوم البيئة إلى الفلسفة الحديثة. كانت تجلس

في الصفوف الأمامية، تدون الأفكار، وتلتقط العبارات التي تصلح للعناوين.

ومع ذلك، كان هناك شعور لا يغادرها؛ شعور بوجود مسافة صامتة بين عالمين متجاورين.

داخل القاعات المكيفة، كانت العدالة الاجتماعية مفهومًا يُناقش، يُعرّف، ويُقاس بالأرقام والمؤشرات. وخارج الجدران نفسها، كانت العدالة وجهًا متعبًا، ويدًا ممدودة، وانتظارًا طويلًا على حافة الطريق. كان التناقض يثقلها. كلما ارتفعت الكلمات، شعرت أحيانًا أن الواقع يزداد صمتًا.

كانت تكتب تقريرًا عن مؤتمر حول التنمية المستدامة، وتحاول أن تمنع صورة الطفل الذي رآته صباحًا من العودة إلى ذهنها. كانت تستمع إلى محاضرة عن حقوق الإنسان، فتظهر أمامها المرأة التي تجلس تحت الجسر، تحتضن رضيعها بصدر أنهكه الجوع، ومع ذلك تهدده بحنان أم ما زالت تتمسك بفكرة أن الحب قادر على مقاومة بعض قسوة العالم.

وحين كانت تسجل تصريحات أحد المسؤولين عن الخطط والاستراتيجيات المتعلقة بمواجهة الفقر، كان سؤال خفي يظهر في داخلها:

هل رأى هؤلاء الذين يتحدثون عن الفقر أولئك الذين يجلسون على الطرقات؟

هل مروا يوماً بالوجوه التي تراها هي كل صباح؟
أم أن لكل إنسان طريقه الخاص داخل المدينة، طريق لا يلتقي إلا
نادرًا بطرق الآخرين؟

وكان هذا السؤال يوقظ فيها شكًا عميقًا: ربما لا تبدأ الفجوة بين
المعرفة والواقع عند اختلاف الأفكار، وإنما عند اختلاف ما يراه الناس
وهم يعبرون الحياة.

ومع ذلك، كانت تواصل عملها. لم يكن ذلك بسبب غياب الوعي
بالتناقضات، وإنما لأن الحياة لا تُبنى على الأسئلة وحدها. كانت
تحتاج إلى راتبها، وكانت تؤمن أن عملها، رغم حدوده، يحمل قيمة ما.
فحفظ أخبار الجامعة، وتوثيق إنجازاتها، وتسجيل لحظاتها، هو
أيضًا نوع من كتابة التاريخ، حتى لو كان تاريخًا رسميًا يروي جانبًا
واحدًا من الحكاية.

وكانت تحاول إقناع نفسها بأن الحقيقة لا تأتي كاملة إلى أحد. إنها
شظايا متناثرة، وكل إنسان يمسك بقطعة منها. لم تكن مطالبة بحمل
العالم كله، ولا بكتابة كل القصص.

غير أن هذا اليقين الصغير بدأ يفقد صلابته.

فمنذ أن بدأت ترى أولئك الذين اعتادت المدينة أن تمر بجانبهم،
ومنذ أن منحتهم وقتًا أطول من نظرة عابرة، بدأت أسئلة جديدة تتشكل
داخلها؛ أسئلة لم تعد قادرة على تأجيلها، لأنها لم تعد تأتي من الخارج،
وإنما من مكان أعمق بكثير.

أين تنتهي حدود المهنة، وأين تبدأ حدود الضمير؟ وهل يحق للصحفي أن يكتفي بما يُكَلَّف بتغطيته، إذا كان يرى، على بعد خطوات، قصة أكثر إلحاحًا، وأكثر صدقًا، وأكثر إنسانية؟

كانت تعيش صراعًا صامتًا بين عالمين يتنازعانها؛ عالم الوظيفة بما يفرضه من أولويات وحدود، وعالم الروح بما يوقظه من تعاطف وأسئلة لا تهدأ. كانت تكتب عن الجامعة كما تريد، المؤسسة أن تُرى، لكنها كانت ترى، في الوقت نفسه، مدينة أخرى لا تظهر في البيانات الصحفية، ولا تجد مكانًا في النشرات اليومية، كأنها تعيش خلف ستار لا يسمح لأحد بإزاحته.

وفي صباح أحد الأيام، كانت تغطي حفل افتتاح مبنى جديد لكلية الهندسة. وقف رئيس الجامعة على المنصة يتحدث بحماس عن المستقبل، وعن الابتكار، وعن البيئة التعليمية التي تليق بالجيل القادم. وكان المبنى، بواجهته الزجاجية اللامعة، يعكس زرقة السماء، كما يعكس صور الطلبة الذين يعبرون أمامه دون أن يرفع معظمهم رؤوسهم إليه؛ بعضهم كان غارقًا في شاشة هاتفه، وبعضهم يضحك مع أصدقائه، وبعضهم يمضي مسرعًا حاملًا همومًا لا تعرفها الخطب الرسمية.

جلست ريثما في الصف الأول، تكتب كعادتها، تسجل العبارات التي ستصبح بعد ساعات خبرًا منشورًا. لكنها، بين الحين والآخر، كانت ترفع رأسها نحو النافذة الواسعة المطلة على الشارع. ومن خلالها كانت ترى جزءًا من عالم آخر، عالم لا يدخل قاعات المؤتمرات إلا مصادفة.

هناك، على الرصيف المقابل، كان يجلس رجل مسن، بملابس أنهكها الزمن، يحمل قطعة من الكرتون كُتبت عليها، بخط مرتجف يكاد يخفي بين التجاعيد: «أنا جائع... ساعدوني».

لم تستطع أن تمنع نفسها من المقارنة. كان الزجاج المصقول يعكس صورة المستقبل الذي يتحدث عنه الجميع، بينما كان ذلك الرجل يجسد حاضراً لا يريد أحد أن ينظر إليه. في الداخل كانت الكلمات تدور حول التنمية، والابتكار، والتميز، وفي الخارج كان الجوع يكفي بجملة قصيرة، لا تحتاج إلى بلاغة، ولا إلى عرض مرئي، ولا إلى تصنيف.

وفي تلك اللحظة، شعرت ربما برغبة عارمة في أن تغلق دفتها، وتنهض من مكانها، وتعبّر الطريق نحو ذلك الرجل الجالس هناك. أرادت أن تجلس إلى جواره، أن تعرف اسمه، وعمره، والطرق التي حملته حتى انتهت به إلى هذا الرصيف. أرادت أن تكتب حكايته بدلاً من خطاب الافتتاح، وأن تمنح صوتاً لمن بقي صوته خارج القاعة.

للمرة الأولى، بدا لها أن الحكاية الأكثر صدقاً لا تُقال من فوق منصة مرتفعة، وإنما تُهمس عند حافة الطريق، حيث يجلس شخص ينتظر عيناً تتوقف، وأذناً لا تستعجل الرحيل.

مع ذلك، بقيت في مكانها.

لم يكن الأمر خوفاً بالمعنى البسيط، وإنما كان اصطداماً بشبكة واسعة من الضرورات التي تحيط بالإنسان حين يحاول أن يختار.

كانت تعرف حدود دورها، وتدرك أن خطوة واحدة خارج المسار المرسوم قد تعني خسارة الوظيفة، والراتب، والمكانة التي بنتها ببطء عبر سنوات طويلة.

وأدركت، بألم هادئ، أن الإنسان لا يتعد دائماً عن صوته الداخلي لأنه لا يسمعه، وإنما لأنه أحياناً يسمعه جيداً، ثم يكشف أن الحياة تطلب منه أثماً لا يستطيع دفعها. لذلك بقيت جالسة.

واصلت كتابة ما ينبغي أن يكتب، بينما كانت تشعر أن القصة التي تستحق أن تُروى حقاً بقيت في الخارج؛ على الرصيف، تحت السماء نفسها التي انعكست زرقتها على واجهة المبنى الجديد، باردة ولا معة كأنها لا تعرف شيئاً عن الذين يعيشون تحتها.

ومع مرور الأيام، بدأت الأخبار الجامعية تفقد حضورها القديم في عينيها. لم تكن بلا قيمة، ولم تكن أقل أهمية مما كانت عليه، غير أنها أصبحت تبدو وكأنها تنتمي إلى عالم مغلق على نفسه؛ عالم له إيقاعه الخاص، وأسئلته الخاصة، واحتفالاته الخاصة، فيما كانت حياة أخرى تتحرك في مكان قريب، دون أن تجد طريقها إلى العناوين.

كانت تغطي حفلات التخرج، وتوثق تكريم الأساتذة، وتكتب عن الوفود الزائرة، ومناقشات الرسائل العلمية، والمؤتمرات المتخصصة. كانت تعرف أن هذه الأحداث تستحق التسجيل، وأن الجامعة تحمل دوراً لا يمكن إنكاره. ومع ذلك، كان شيء ما داخلها يشعر بأن النبض

الأعمق للحياة يقع في مكان آخر؛ عند البوابة، وفي الشوارع المحيطة،
وفي الوجوه التي لا تدخل قاعات المؤتمرات.

وبدأ سؤال واحد يعود إليها كل يوم:

«ما الخبر الحقيقي لهذا اليوم؟»

هل هو الخطاب الذي يتحدث عن الريادة والابتكار والتميز؟

أم صوت طفل يبحث منذ الصباح عن شيء يسكت جوعه؟

هل هو مشهد آلاف الخريجين وهم يرفعون شهاداتهم فرحًا؟

أم عيون أولئك الذين لم تمنحهم الحياة فرصة الاقتراب من
الحروف الأولى؟

هل هي الأموال التي تُرصد للمختبرات والمشروعات البحثية؟

أم العملات القليلة التي تحاول بها يد صغيرة أن تشتري يومًا آخر
من البقاء؟

لم تكن هذه الأسئلة محاولة لتقليل قيمة العلم، ولا إنكارًا لدور
الجامعة. كانت محاولة لفهم ذلك الانقسام الغامض الذي يجعل العالم
يبدو وكأنه يعيش في صورتين متجاورتين؛ صورة مضاءة بالكاميرات
والخطب، وصورة أخرى تختبئ في الزوايا، لا تظهر إلا عندما يصبح
الألَم أكبر من قدرة الجميع على تجاهله.

وكانت الأسئلة تتكاثر داخلها كما يتسرب الماء إلى جدار قديم.
لا يسقط الجدار في لحظة واحدة، وإنما يتغير من الداخل ببطء، حتى
يصبح الانهيار مجرد نتيجة مؤجلة.

شعرت أن بعض أفكارها القديمة بدأت تفقد صلابتها. الطريق الذي سارت فيه سنوات لم يعد واضح الحدود كما كان، وكانت تقف في مساحة بين عالمين؛ عالم تعرفه جيدًا، وعالم آخر بدأ يطالبها بأن تراه.

وفي إحدى الليالي، بعد يوم طويل أمضته في تغطية فعاليات أسبوع البحث العلمي، عادت إلى شقتها مثقلة بالتعب. جلست أمام حاسوبها لتكتب التقرير الختامي الذي ينتظره رئيس التحرير صباحًا. كانت تعرف شكله قبل أن تبدأه.

ترتيب للأحداث، أسماء للمتحدثين، عناوين للأبحاث، اقتباسات منتقاة، وصياغة تحفظ التوازن المطلوب. تقرير يشبه عشرات التقارير التي كتبتها من قبل، حتى بدا لها أنها قادرة على إنجازه كما لو أن أصابعها تحفظ الطريق وحدها. فتحت ملفًا جديدًا.

ظهرت الشاشة البيضاء أمامها ساكنة. غير أنها لم ترها في تلك الليلة صفحة فارغة، وإنما رأت فيها امرأة. مساحة لا تطلب منها شيئًا، ولا تضع أمامها تعليمات، كأنها تقول بصمت: اكتب ما رأيت، لا ما ينتظر منك الآخرون أن تريه.

ومن غير تخطيط، بدأت أصابعها تتحرك فوق لوحة المفاتيح. غير أن الكلمات لم تتجه إلى أسبوع البحث العلمي، ولا إلى الجلسات الافتتاحية، ولا إلى أسماء المسؤولين، ولا إلى تفاصيل الأوراق المقدمة.

اتجهت إلى الشارع.

كتبت عن الرجل المسن الذي يجلس كل صباح على الرصيف، يحمل جسده المنهك كأنه يحمل تاريخًا طويلًا لا يعرف أحد فصوله. كتبت عن يده المرتجفة وهي تمتد نحو المارة، لا طلبًا لشيء محدد، وإنما بحثًا عن علامة تقول إنه ما زال حاضرًا في هذا العالم.

وكتبت عن المرأة التي تحتضن طفلها في برد الليل، وتحاول أن تخفي عنه قسوة الأيام بابتسامة أنهكها التعب.

وكتبت عن الصبي الذي يقف عند إشارات المرور، يحمل علب المناديل الورقية، يلوح بها للسيارات العابرة. بدا لها أنه لا يبيع أوراقًا بيضاء فقط، وإنما يبيع أجزاء صغيرة من طفولته، ساعة بعد أخرى، حتى يصبح الزمن نفسه شيئًا يمكن أن يُفقد ويُشترى.

لم تكن تعرف أسماءهم، فاخترت لهم أسماء. ولم تكن تعرف حكاياتهم، فنسجت لها احتمالات أقرب إلى الحقيقة من كثير مما كانت تكتبه في الأخبار الرسمية. كانت تشعر، وهي تكتب، أنها لا تبتلع أشخاصًا بقدر ما تمنح وجوهًا مجهولة حقها في الوجود، وتعيد إلى أناسٍ لم يسألهم أحد يومًا عن حياتهم شيئًا من إنسانيتهم المسلوقة. واستمرت في الكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل، كأن الكلمات كانت تنتظر منذ زمن طويل من يفتح لها الباب.

وحين انتهت، أدركت أنها لم تكتب تقريرًا صحفيًا. كانت قد كتبت شهادة؛ شهادة على عالم يعبره الجميع، بينما يظل جزء كبير منه خارج مجال الرؤية.

كانت تعرف أن ما كتبه لن يجد طريقه إلى صفحات الصحيفة. لم تكن هذه الحكايات تنتمي إلى النشرة اليومية للجامعة، ولا إلى سياسة تحريرية اعتادت أن تفصل بين الخبر وألمه، بين المؤسسة والشارع، بين ما يُعرض على الصفحة الأولى وما يُترك في الزوايا المنسية. ومع ذلك، لم تشعر بالخسارة.

للمرة الأولى منذ سنوات، أحست أن الكتابة لم تكن مجرد مهمة تؤدي في نهاية اليوم، وإنما لحظة اقتراب من شيء أكثر صدقًا. كانت تشبه الاعتراف، وتشبه محاولة مقاومة النسيان، وتشبه صلاة صامتة لا تحتاج إلى كلمات محفوظة.

وشعرت أنها، خلال تلك الساعات القليلة، اقتربت من معنى الصحافة أكثر مما اقتربت منه عبر مئات الأخبار التي كتبتها من قبل. فالصحافة، كما بدأت تراها الآن، لا تكتفي بنقل ما يقوله أصحاب القوة، وإنما تبحث عن الأصوات التي ضاعت في الضجيج، وعن الذين يعيشون في العالم نفسه دون أن يجدوا من يروي حكايتهم.

أغلقت الملف بعد أن حفظته في مجلدها الشخصي، وبقيت تحديق في اسمه الظاهر على الشاشة. كان شعورها مزيجًا من راحة غامضة وألم خفي؛ راحة لأنها أخيرًا كتبت شيئًا يشبهها، وألم لأنها تعرف أن هذه الكلمات ستبقى خلف جدار صغير من الملفات المغلقة، بعيدة عن أولئك الذين ربما كانوا يحتاجون أكثر من غيرهم إلى رؤية الوجه الآخر للحقيقة.

جلست ربما أمام حاسوبها من جديد، وأكملت تقريرها الإخباري اليومي كما تفعل في نهاية كل مساء. راجعت الجمل بعناية، عدلت عبارة هنا، حذفت كلمة هناك، ثم ضغطت زر الإرسال.

خرج التقرير من صندوق بريدها الإلكتروني ببرودة الرسائل الرسمية؛ منظمًا، مرتبًا، خاليًا من الفوضى التي تحملها الحياة حين تدخل بلا موعد.

وحين غادر التقرير مكانه، شعرت أن جزءًا منها غادر معه. جزءًا اعتاد أداء ما يُطلب منه، فيما بقي جزء آخر، أكثر عمقًا، جالسًا في الداخل، يحمل أسئلة لا تجد طريقها إلى العناوين.

كانت أصابعها تتحرك فوق لوحة المفاتيح بدقة اكتسبتها خلال سنوات طويلة من العمل. غير أن عقلها كان يتعد شيئًا فشيئًا عن الكلمات التي تكتبها، ويتجه نحو مساحة أخرى؛ مساحة تتجمع فيها الأسئلة التي لم تجد يومًا مكانًا في التقارير، كغيوم ثقيلة تتراكم في سماء بعيدة، تنتظر لحظة لا يعرف أحد متى تأتي.

وفي تلك اللحظة، ظهرت في ذهنها فكرة لم تطلب الإذن بالدخول. لم تتقدم بهدوء، وإنما اندفعت فجأة، كشراة صغيرة تسقط في أرض جافة.

«ماذا لو اختفت؟»

لم يكن اختفاءً من المدينة، ولا هروبًا من المكان، وإنما اختفاءً من الصورة التي رسمها الآخرون لها. ماذا لو خلعت هوية الصحفية التي

يعرفها الجميع؛ المرأة التي تحمل بطاقة العمل، ودفتر الملاحظات،
وتجلس في الصفوف الأولى للمؤتمرات، وتكتب عن العالم من خلف
طاولة آمنة؟

ماذا لو وضعت جانباً كل تلك العلامات التي تمنحها موقعها،
واختارت، ولو لأيام قليلة، أن تصبح امرأة بلا اسم معروف، تجلس
على الرصيف، تمد يدها إلى الغرباء، لا تعرف من سيتوقف، ومن
سيمضي، ولا بأي نظرة سيعبر الناس فوق وجودها؟

ماذا لو انتقلت، للمرة الأولى، إلى الجهة الأخرى من المشهد؟
إلى المكان الذي كانت تكتب عنه طويلاً، دون أن تعرف كيف يبدو
العالم من داخله.

إلى ذلك العالم الذي طالما رأته من الخارج، وكتبت عنه من مسافة
آمنة، دون أن تطاء أرضه حقاً. ماذا لو عاشت، لا أن تراقب؟ ماذا لو
اختبرت الجوع بدلاً من وصفه، والوحدة بدلاً من تحليلها، ونظرات
التجاهل بدلاً من تدوينها في دفتر الملاحظات؟

ارتسمت على شفيتها ابتسامة خافتة، أقرب إلى الدهشة منها إلى
الفرح، وهمست لنفسها:

«هل فقدت صوابك يا ريما؟ أحقاً تفكرين في هذا؟»

لم يكن السؤال يبحث عن جواب جاهز. كان يشق طريقه داخلها
ببطء، كما يجد الماء طريقه إلى شق صغير في صخرة صلبة. لم يعد

مجرد فكرة غريبة ظهرت في لحظة انفعال، وإنما صار احتمالاً له حضوره، يطالب بأن يُسمع، وأن يُنظر إليه بجدية.

كانت تعرف، قبل أي شخص آخر، أن ما تفكر فيه يقف على مسافة غير مريحة من قواعد المهنة، ومن حدود البحث العلمي، وربما من بعض التصورات الأخلاقية التي تربت عليها. فالتخفي ليس مغامرة بسيطة، ولا تجربة يمكن خوضها بدافع الفضول. إنه منطقة مليئة بالأسئلة؛ أين ينتهي الفهم ويبدأ الاستغلال؟ أين تتوقف الشهادة ويبدأ التدخل؟ وكيف يمكن للإنسان أن يقترب من حياة الآخرين دون أن يحولها إلى مادة يستهلكها ثم يرحل؟

ومع ذلك، ظلت الفكرة تمتلك قوة غامضة عليها.

كانت تشبه باباً موارباً في نهاية ممر طويل؛ تخشى أن تفتحه، لكنها لا تستطيع أن تتجاهل الضوء المتسرب من خلفه. وكانت تشبه الوقوف عند حافة مرتفعة لا تطلب من الإنسان أن يقفز، وإنما أن ينظر إلى العمق الذي لم يره من قبل.

وحين تركت نفسها لهذا الخاطر، أدركت أنه لم يولد في تلك الليلة. كان هناك منذ زمن، يتشكل بصمت، وينمو مع كل صباح كانت تعبر فيه الطريق نفسه.

بدأ يوم صارت تلاحظ الوجوه ذاتها على الأرصفة.

كبر مع الطفل الذي يحمل علب المناديل عند الإشارات، ومع المرأة التي تفتش الأرض منتظرة يداً عابرة، ومع الرجل المسن الذي

أثقلته السنوات حتى لم يجد في نهاية الطريق سوى زاوية صغيرة يجلس فيها ويبتظر.

كانت تعرف الفقر من خلال الكتب، وتسمع تفسيراته في المحاضرات، وتكتب عن أسبابه في التقارير. غير أنها بدأت تشعر أن كل تلك المعرفة تشبه الوقوف أمام بحر من خلف زجاج سميك. ترى حركة الأمواج، وتدرّك اتساع الماء، لكنها لا تعرف برودته حين يلامس الجسد، ولا ملوحته، ولا قوة التيار حين يسحب من يبتعد عن الشاطئ. واكتشفت أن هناك نوعاً آخر من المعرفة لا يصل عبر الصفحات، ولا عبر الجداول، ولا عبر المؤتمرات.

معرفة لا تدخل العقل أولاً، وإنما تعبر الجسد.

معرفة تولد من الجوع حين يصبح انتظار الطعام عادة، ومن الانتظار حين يتحول الزمن إلى حمل ثقيل، ومن الإهانة حين تتكرر حتى يصير الألم جزءاً من الصمت.

هذه معرفة لا تُكتسب من موقع المراقب، وإنما من الاقتراب. لا تُفهم بالكامل حين تُشرح، وإنما حين يعبر الإنسان جزءاً من الطريق الذي يعبره الآخرون.

وللمرة الأولى، سمحت ربما لنفسها أن تواجه حقيقة ظلت تؤجلها طويلاً:

لقد كتبت كثيراً عن الفقر، لكنها لم تقترب من حياة الفقراء كما ينبغي.

كانت تعرف عنهم أشياء كثيرة، غير أنها لم تعرفهم هم.
وكانت تدرك الآن أن بين الأمرين مسافة لا تختصرها آلاف
الصفحات؛ مسافة تشبه الفرق بين شخص يقرأ عن النار في كتاب،
وآخر يقترب منها حتى يشعر بحرارتها على جلده.

ومن هنا بدأت الفكرة تأخذ شكلاً آخر.

لم تعد رغبة في كتابة قصة مختلفة، وإنما محاولة لفهم ما لم تستطع
المعرفة وحدها أن تمنحها إياه.

أخذت تنمو داخلها ببطء، كما تنمو بذرة تحت التراب قبل أن
تعرف طريقها إلى الضوء. لم تعد خاطرة يمكن إبعادها بالانشغال،
وإنما حضوراً صامتاً تمد جذوره في أعماقها، يتغذى من كل وجه رآته،
ومن كل سؤال بقي بلا جواب.

وبدأت، من غير أن تنتبه، تبحث عن معنى يجعلها قادرة على
المضي. لم تكن تحاول إقناع الآخرين، وإنما كانت تحاول أن تفهم
نفسها.

وكان صوت داخلي يسألها:

«ربما لا يكفي أن أجلس أمامهم.

ربما لا تكفي المقابلات، ولا الدراسات، ولا الكلمات التي أرتبها
على الورق.

ربما يحتاج الإنسان، أحياناً، إلى الاقتراب من الألم حتى يسمع لغته
الخاصة.

وربما لا تكون الصحافة في جوهرها نقلاً لما يحدث فقط، وإنما محاولة للوقوف قريباً بما يكفي كي يصبح الصحفي شاهداً، وقریباً بما يكفي كي يبقى إنساناً قبل أن يكون كاتباً.»

ثم كانت الفكرة تمضي بها إلى أبعد من ذلك.

«ماذا لو اضطررت، ولو مؤقتاً، إلى خلع كل ما يمنحني الأمان؟ بطاقة العمل، والملابس الأنيقة، واللغة الواثقة، والاسم الذي يفتح الأبواب. ماذا لو خرجت إلى الشارع بلا شيء سوى جسدي، كما يخرج أولئك الذين لا يملكون إلا انتظار رحمة عابر؟»

كانت هذه الأسئلة تتردد في داخلها كصدى لا يخفت. وكلما حاولت إقناع نفسها بأنها مجرد نزوة عاطفية، عادت الفكرة أكثر رسوخاً، كأنها تعرف الطريق إلى أعماقها أكثر مما تعرفه هي.

وفي إحدى الليالي، جلست على حافة سريرها، وسحبت دفترًا صغيراً اعتادت أن تحتفظ فيه بالأفكار العابرة والملاحظات التي لا تجد طريقها إلى الأوراق الرسمية. غير أنها هذه المرة لم تفتح صفحاته بحثاً عن فكرة لمقال، ولا عن مشروع لتحقيق صحفي. كتبت في أعلى الصفحة عنواناً واحداً:

«إذا أصبحت متسولة...»

بقيت تحديق في الكلمات طويلاً، كأنها تنظر إلى باب فتحته بيدها ولا تعرف ما الذي ينتظرها خلفه. ثم بدأت تكتب.

«كيف سأخفي ملامحي؟

أي ثياب سأرتدي؟

أين سأجلس؟

كم يوماً سأبقى؟

كيف أمنع زملائي وطلابي وكل من يعرفني من اكتشاف حقيقتي؟»
كانت الأسئلة تتوالى، لا كقائمة تعليمات، وإنما كخطوات تقودها
ببطء نحو منطقة لم تعد تفصلها عنها سوى مسافة قصيرة. وكلما
اكتملت ملامح الخطة، شعرت أن الفكرة التي بدأت كاحتمال بعيد
أخذت تقترب من الواقع، وأن بعض الأبواب حين تُفتح لا تعود كما
كانت قبل لحظة فتحها.

وللمرة الأولى، شعرت بالخوف الحقيقي.

لم يكن خوفها من الشارع، ولا من الغرباء، ولا من احتمال الفشل.
كان خوفها من نفسها.

ماذا لو عادت ولم تجد الطريق ذاته الذي خرجت منه؟

ماذا لو اكتشفت أن المرأة التي ستؤدي دورها ليست غريبة عنها كما
كانت تظن؟

وماذا لو كان الفاصل بينها وبين أولئك الذين تراهم كل صباح مجرد
سلسلة من الظروف التي اجتمعت في اتجاه معين، بينما كان يمكن لها
أن تتجمع في اتجاه آخر؟

كانت تدرك أكثر من أي وقت مضى هشاشة الإنسان.

كم يبدو المرء مطمئناً إلى حياته، كأنها ملك ثابت بين يديه، بينما قد تقف بينه وبين الانهيار مسافة قصيرة لا تُرى؛ قرار واحد، أو مرض مفاجئ، أو فقدان وظيفة، أو حرب تعبر المكان، أو خطأ صغير يحدث في لحظة لا تحتمل الخطأ.

كم نميل إلى الاعتقاد أن ما نملكه جزء طبيعي من وجودنا، مع أنه قد يكون مجرد إقامة مؤقتة في بيت منحه لنا الزمن، وقد يطلب منا الرحيل عنه دون إنذار.

وهنا وصلت إلى فكرة لم تكن قد منحتها اسمًا من قبل.

لم تكن تبحث عن فهم الفقر وحده.

كانت تبحث عن فهم هشاشة الإنسان.

كانت تريد أن تقترب من تلك المسافة الغامضة التي تفصل بين الأمان والضياح، بين الكرامة التي يمنحها الاستقرار، والكرامة التي يحاول الإنسان حمايتها حين لا يبقى له سوى نفسه.

لم تكن تبحث عن بطولة، ولا عن قصة ترويحها للآخرين. كانت تريد أن تعرف حدود قدرتها على الاحتمال، لأنها بدأت تشك في الصور التي يصنعها الإنسان عن ذاته حين يعيش طويلاً في مكان آمن.

وسألت نفسها، بصراحة لم تعرفها من قبل:

«من أكون إذا انتزعت مني كل الصفات التي أعرف بها نفسي؟ إذا لم أعد أستاذة، ولا صحفية، ولا صاحبة مكتب، ولا امرأة يعرفها الناس؟

هل يبقى مني شيء؟ أم أنني لست سوى مجموع الأدوار التي ارتديتها حتى صدقتها؟»

ظل السؤال معلقاً في داخلها.

لم يقدم لها جواباً، وربما لم يكن يبحث عن جواب.

وفي صباح اليوم التالي، خرجت من منزلها، غير أنها لم تتجه إلى الجامعة كما تفعل كل يوم.

وجدت قدميها تقودانها إلى أحد الأزقة القديمة، حيث تصطف محال الملابس المستعملة. كانت تلك زيارتها الأولى إلى مكان كهذا. استقبلتها رائحة الأقمشة التي احتفظت بآثار أصحابها السابقين؛ رائحة بيوت أغلقت أبوابها، وخزائن فُرغت من محتوياتها، وأعمار مرت وتركت شيئاً صغيراً خلفها.

شعرت أنها لا تدخل متجرًا لبيع الملابس، وإنما تدخل أرشيفًا صامتًا لحيوات مجهولة، معلقة على علاقات معدنية تنتظر من يلمسها. تجولت بين الرفوف ببطء.

كانت تمرر أصابعها فوق الأقمشة، وتتساءل عن الأجساد التي حملتها ذات يوم. من ارتدى هذا المعطف؟ من سار بهذا الحذاء في طرق لم تعرفها؟ هل كان صاحبه عاملاً بسيطاً؟ أم إنساناً أجبرته ظروفه على الرحيل؟ أم شخصاً غاب ولم يعد أحد بحاجة إلى الاحتفاظ بأشيائه؟

بدت كل قطعة أمامها كأنها تحمل قصة توقفت في منتصف الطريق.

اختارت ثوبًا باهت اللون، أكلت الغسلات المتكررة بعض ملامحه،
وحذاءً ظهرت على أطرافه علامات الزمن، وغطاء رأس يساعد على
إخفاء جزء من وجهها.

لم تكن تشتري ملابس.

كانت تجمع تفاصيل امرأة أخرى.

امرأة لا تشبه ريما التي يعرفها الجميع؛ الأستاذة التي تدخل الجامعة
من بوابتها الرئيسية، والصحفية التي تحمل دفترها وبطاقة عملها،
والإنسانة التي اعتادت أن تنظر إلى العالم من موقع مختلف.

وحين عادت إلى منزلها، أغلقت الباب خلفها، ووقفت أمام المرأة.
ارتدت الثياب ببطء، قطعة بعد أخرى، كأنها تخلع حياتها السابقة
قبل أن ترتدي الجديدة.

ثم رفعت رأسها.

حدقت في انعكاسها طويلًا.

لم ترَ ريما كما عرفتھا طوال سنوات عمرها.

ورغم ذلك، لم يكن الوجه غريبًا تمامًا.

كان وجهًا يحتمل أن يكون وجهها لو أن الحياة سلكت طريقًا آخر.
ارتجفت في داخلها مشاعر متناقضة، يصعب فصلها عن بعضها؛
شيء من الخوف، و شيء من الفضول، و شيء يشبه الحزن على هشاشة
المصير الإنساني، و شيء آخر يشبه الدهشة من قدرة الإنسان على أن

يتحول، بمجرد تغيير ثيابه، من شخص يُلقى عليه السلام إلى شخص قد لا يراه أحد.

وفي تلك اللحظة، أدركت أن التجربة لم تبدأ عندما سترتدي هذه الملابس في الشارع.
لقد بدأت بالفعل.

بدأت منذ اللحظة التي نظرت فيها إلى المرأة، ولم تعد متيقنة أي الوجهين هو حقيقتها.

لكن التردد ظل جالسًا في مكانه، كحارس أخير يقف أمام الباب ويمنعها من العبور. كانت تقضي ساعات طويلة في غرفتها، ترتدي تلك الثياب ثم تخلعها، تجمع شجاعته ثم تتراجع، تتخذ القرار في لحظة اندفاع، ثم تعود لتسأل نفسها إن كانت قد تجاوزت حدود العقل والمنطق. كانت وكأنها تخوض معركة صامتة مع ذاتها، معركة لا تعرف إن كانت ستنتهي بالانتصار أم بالاستسلام.

كانت تسأل نفسها:

«هل هذا ضروري فعلاً؟ هل لا توجد وسيلة أخرى للفهم؟ ألم أمضِ سنوات في القراءة والبحث والكتابة؟ ألم أُجرِ عشرات المقابلات، وأحلل الأرقام، وأستمع إلى الخبراء؟ لماذا أحتاج إلى أن أذهب إلى هذا الحد؟»

لكن صوتاً آخر، أكثر عمقاً وهدوءاً، كان يجيبها:

«ألم تفعل كل ذلك من قبل؟ فلماذا ما زال السؤال يؤلمك؟ لماذا تشعرين بعد كل تقرير تكتبينه أنك اقتربت من الحقيقة قليلاً ثم ابتعدت

عنها أكثر؟ لماذا تبدو الكلمات التي تصفين بها الفقر مرتبة وجميلة، لكنها عاجزة عن نقل ارتجافة اليد التي تمتد طلبًا للمساعدة، أو ثقل الساعات الطويلة التي يقضيها الإنسان منتظرًا شيئًا قد لا يأتي؟»

كانت تعرف أن هذا الصوت لا يدعوها إلى مغامرة عابرة، وإنما يقودها نحو حقيقة ظلت تؤجل مواجهتها طويلاً. فقد بدأت تدرك أن الفقر ليس موضوعاً يوضع في صفحات البحث، ولا ظاهرة تُحاصرها الجداول والمؤشرات، وإنما حياة كاملة لها رائحة وملمس وذكرة وخوف، ولها ذلك الصمت الطويل الذي تعجز الكلمات عن حمله مهما حاولت.

كانت تعرف أن الفهم الحقيقي لا يولد من المسافة الآمنة. يحتاج إلى اقتراب يجعل الإنسان يشعر بثقل ما يراه. يحتاج إلى أن يضع جانباً، ولو لفترة قصيرة، كل العلامات التي تمنحه الطمأنينة، وأن يواجه السؤال الأكثر قسوة:

من يكون الإنسان حين تُنتزع منه كل الأشياء التي اعتاد أن يعرف بها نفسه؟

وفي صباح يوم الجمعة، بعد ليلة طويلة لم يأتها النوم خلالها إلا على فترات قصيرة ومتقطعة، اتخذت ريمًا قرارها.

استيقظت قبل الفجر، حين كانت المدينة لا تزال معلقة بين بقايا الليل ووعد الصباح. ارتدت ثيابها البسيطة البالية، غطت شعرها وجزءاً من ملامحها، ثم ألقت نظرة أخيرة على الغرفة التي احتضنت أسابيع من الصراع الصامت.

شعرت للحظة برغبة في التراجع.
أن تخلع هذه الملابس.
أن تعود إلى المرأة التي تعرفها.
إلى مكتبها، وإلى اسمها الذي يفتح لها الأبواب، وإلى الحياة التي
رسمت حدودها بعناية.
غير أنها لم تفعل.
خرجت من المنزل دون أن تلتفت خلفها.
كانت خطواتها الأولى ثقيلة. لم يكن الثقل نابغاً من التردد، وإنما
من ذلك الإدراك الغامض الذي يسبق العقل أحياناً؛ إدراك الجسد بأن
بعض الخطوات لا تعيد الإنسان إلى النقطة التي بدأ منها.
كان الشارع هادئاً. المدينة لم تستيقظ بعد بكامل ضجيجها. المحال
مغلقة، والطرقات شبه خالية، وكأن العالم يمنحها لحظة أخيرة للتراجع
قبل أن تدخل المساحة التي اختارتها.
ومع ذلك، واصلت السير.
وصلت إلى المكان القريب من الجامعة؛ ذلك الركن الذي اعتادت
أن تراه من خلف زجاج السيارة، أو أثناء مرور سريع لا يسمح بالتوقف.
المكان نفسه الذي كان يظهر لها دائماً كجزء من المشهد الخارجي،
صار الآن المكان الذي ستجلس فيه من الداخل.
جلست على الرصيف.
للمرة الأولى، لم تعد تنظر إلى المشهد من موقع العابر.

أصبحت جزءاً منه.

خفضت رأسها قليلاً، فرأت العالم من زاوية لم تعرفها من قبل؛ زاوية لا ترى الوجوه، وإنما ترى الأحذية التي تمر، والخطوات المستعجلة، والأجساد التي تعبر قريباً دون أن تلتفت.

رأت كيف يمكن للإنسان أن يكون على بعد خطوات من الآخرين، ومع ذلك يعيش خلف جدار لا يُرى.

وضعت أمامها كوباً بلاستيكيًا فارغًا.

لم يكن فراغه هو ما لفت انتباهها.

كان ذلك الفراغ يحمل سؤالاً صامتًا:

هل يرى أحد الإنسان الذي يقف خلف هذا الكوب؟

في تلك اللحظة، شعرت أنها لم تعد ربما الصحفية التي تعرفها، ولم تصبح بعد المرأة التي تحاول أن تكونها. كانت تقف في مساحة ثالثة، بين هويتين، وبين عالمين؛ مساحة غريبة منحنتها للمرة الأولى القدرة على النظر من الجهتين معًا.

لم تأتِها الإجابات في صورة أفكار مرتبة أو استنتاجات جاهزة.

جاءتها من مكان آخر.

من الجسد.

من ثقل الجلوس على الرصيف.

من نظرات العابرين.

من الإحساس المفاجئ بأن المسافة التي تفصل بين حياة وأخرى
قد تكون أقل مما يتخيل الإنسان.

في برودة الرصيف.

في ثقل الانتظار.

في نظرات العابرين.

في الصمت الذي يسبق كل يد تمتد ولا تعرف هل ستُقابل بالرحمة
أم بالتجاهل.

كانت أسئلتها القديمة تتحول، للمرة الأولى، إلى معرفة حية.

وقفت أمام المرأة في صباح ذلك اليوم قبل خروجها، لكنها لم ترَ
الشخص الذي اعتادت رؤيته. كان انعكاسها يبدو كأنه لامرأة أخرى
تحاول الاقتراب منها، لكنها لا تزال غريبة عنها.

كانت ترتدي الثياب الرثة التي اشترتها من المتجر القديم، وغطاء
الرأس الذي يخفي جزءاً من وجهها، وتحاول أن تطمس ملامح ربما
الصحفية تحت طبقات من القماش الباهت. لكنها كانت تعرف أن
الأمر أعمق من ذلك بكثير.

فالإنسان لا يخفي هويته بالملابس فقط.

هناك أشياء لا يمكن تغطيتها: طريقة الوقوف، نبرة الصوت، حركة
اليد، النظرة التي تحمل تاريخاً كاملاً. هناك حضور يتشكل عبر سنوات
التربية، والتعليم، والطبقة الاجتماعية، والعلاقات، والامتيازات التي
يكتسبها الإنسان حتى تصبح جزءاً من جلده.

وكان هذا أكثر ما يخيفها.

لم تكن تخشى أن يعرفها أحد من وجهها.

كانت تخشى أن يعرفها الناس من شيء أعمق، من ذلك الأثر الخفي الذي يتركه الانتماء في الإنسان مهما حاول الهروب منه.

وظل الخوف يحيط بها، يلتف حولها كأفعى بطيئة لا تهاجمها، لكنها تذكرها دائماً بوجودها.

كانت تعرف الثمن المحتمل لهذه الخطوة.

كانت تعرف أن عائلتها، تلك العائلة التي اعتادت أن تتحرك داخل دوائر المكانة والاحترام الاجتماعي، قد لا ترى في خطوتها بحثاً عن الحقيقة. ربما سترها خروجاً عن الحدود التي رسموها للحياة المقبولة.

كانت تتخيل والدها؛ الرجل الذي أمضى عمره يحافظ على صورته ومكانته، وهو يسمع أن ابنته الصحفية الناجحة تجلس على الرصيف بثياب بسيطة، تمد يدها إلى الغرباء. كانت ترى الصدمة في عينيه قبل أن تحدث، وترى والدتها، التي بنت جزءاً كبيراً من حياتها حول صورة العائلة أمام الآخرين، وهي تسأل بصمت: كيف وصلت ابنتي إلى هذا المكان؟

وكانت تتخيل إختوتها وهم يحاولون تفسير ما حدث، وأقاربها وهم يعيدون رواية القصة في مجالسهم. لن يسمعوا إليها بوصفها رحلة بحث عن معنى، وإنما قد تختصر عندهم في كلمة واحدة: تمرد.

مرت هذه الصور في ذهنها كفيلم سريع، مشاهد متلاحقة لا تمنحها فرصة للتوقف.

لم يكن خوفها من فقدان الوظيفة وحده.

ولم يكن من نظرات المجتمع وحدها.

كان خوفها الأعمق أن تفقد المكان الذي عرفت نفسها من خلاله، وأن تكتشف أن الهوية التي بنتها طوال سنوات ليست ذلك البناء الصلب الذي تخيلته، وإنما طبقة رقيقة قد تتشقق حين يقترب الإنسان من عالم لم يعتد دخوله.

ومع ذلك، بقيت واقفة أمام الباب.

لأنها كانت تعرف أن بعض الأسئلة لا تجد طريقها إلى النور خلف الأبواب المغلقة.

غير أن العقبة الأكبر لم تكن الثياب، ولا المكان، ولا حتى نظرات الغرباء.

كانت العقبة اسمها.

كان اسم ربما نفسه هو الحاجز الذي يصعب عبوره.

شهرتها كصحفية لم تكن مجرد صفة مهنية يمكن وضعها جانباً. كانت ظلًا يرافقها، وصورة محفورة في ذاكرة المدينة. ذلك الوجه الذي اعتاده الناس على شاشات التلفزيون، وفي صفحات الصحف، وفي التحقيقات التي أعدتها عن الشخصيات العامة والأحداث الكبرى، لم يعد ملكاً لها وحدها.

لقد أصبح جزءاً من الذاكرة الجماعية.
لم تكن امرأة مجهولة تستطيع أن تذوب بين مئات الوجوه العابرة.
كانت اسماً يعرفه الناس، وصوتاً سمعوه، وصورة ارتبطت في أذهانهم
بالنجاح والحضور والثقة.

بدأت تتخيل الاحتمالات واحداً بعد آخر.
قد يمر شخص بجانبها ثم يتوقف.
قد يشعر بأن شيئاً في ملامحها مألوف.
قد يحدق أكثر مما ينبغي، محاولاً أن يجمع بين الوجه الذي يراه
الآن والصورة التي احتفظ بها في ذاكرته.

ثم قد يمر السؤال في ذهنه:
«أليست هذه ريما؟»
بعدها قد يخرج هاتفه.
قد يلتقط صورة.
وقد تنتقل الصورة خلال ساعات من شاشة إلى أخرى.
وقد يصل الخبر إلى الصحيفة التي تعمل فيها قبل أن تجد الكلمات
التي تشرح بها ما حدث.

لم يكن الأمر مجرد انكشاف تجربة شخصية.
كان احتمال سقوط صورة كاملة بنتها خلال سنوات.
كانت تعرف أن الصحافة لا تقوم على المهارة وحدها، وإنما على

الثقة التي يمنحها الناس لمن يحمل القلم أو يقف أمام الكاميرا. وكانت تدرك أن الآخرين قد لا يرون ما تفعله محاولة للاقتراب من الحقيقة، وإنما قد يقرأونه بطريقة مختلفة؛ تناقضًا، أو استعراضًا، أو تجاوزًا للحدود التي اعتادوا رسمها.

وربما لن يسأل أحد عن النية.

وربما لن يبحث أحد عن الطريق الطويل الذي قادها إلى ذلك الرصيف.

فالصور في عالم الإعلام تملك أحيانًا سلطة أكبر من الحكايات التي تفسرها.

وكان هذا الاحتمال يملؤها بخوف عميق.

لم يكن خوف لحظة عابرة.

كان إحساسًا بأنها تقف أمام نار يمكن أن تلتهم، في لحظة واحدة، سنوات من البناء الهادئ. لم تكن تخاطر بيوم واحد، وإنما تخاطر بالهوية التي صنعتها، بالاسم الذي لم يعد مجرد اسم، وإنما صار جزءًا من وجودها.

كانت تعرف أن ما تفكر فيه قد يتجاوز حدود التجربة الإنسانية التي تبحث عنها.

قد يتحول إلى زلزال مهني، يمتد أثره إلى كل ما بنته، وإلى الصورة التي ظلت تحرسها طوال حياتها.

وحاولت أن تبحث عن حل وسط.

فالإنسان، حتى عندما يقرر مواجهة خوفه، يبحث غالباً عن طريقة تجعله يواجهه بأقل قدر ممكن من الخسارة.

فكرت أن تغير مظهرها أكثر، أن تخفي وجهها بالكامل، أن تذهب إلى منطقة بعيدة لا يعرفها فيها أحد، أن تختار وقتاً لا يكون فيه المكان مزدحماً، أو يومًا تكون فيه حركة الجامعة أقل. فكرت في كل الطرق التي تسمح لها بالاقتراب من التجربة دون أن تدفع ثمنها كاملاً. لكنها، كلما فكرت أكثر، أدركت أن كل هذه الحلول تخون الفكرة الأصلية.

فهي لم تكن تريد مجرد الجلوس على الرصيف. لم تكن تبحث عن صورة، ولا عن تحقيق صحفي مختلف، ولا عن تجربة يمكن أن تنهيها متى شاءت ثم تعود إلى حياتها الطبيعية. كانت تريد أن تعرف ماذا يعني أن يعيش الإنسان بلا ضمانات. أن يستيقظ ولا يعرف ماذا سيأكل.

أن يجلس في مكان عام ويكشف ضعفه أمام عيون لا يعرف أصحابها. أن ينتظر يداً تمتد بالرحمة، أو تمر بجانبه بلا اكتراث. كانت تريد أن تختبر ذلك الشعور الذي يعيشه المتسولون كل يوم: أن تكون مكشوفاً أمام العالم، دون حماية، ودون مكانة، ودون اسم يمكن أن ينقذك إذا ساءت الأمور.

فالفرق الحقيقي بينها وبينهم لم يكن في الرصيف.

كان في وجود باب خلفي تستطيع العودة منه.

كانوا يعيشون التجربة لأنهم لا يملكون خيارًا آخر، أما هي فكانت تدخلها بإرادتها، وهي تعرف أن بإمكانها، في أي لحظة، أن تخلع الثياب وتعود إلى بيتها.

وهنا ظهر السؤال الأخلاقي الذي بدأ يؤرقها:

هل يمكن لإنسان أن يفهم معاناة الآخرين وهو يعرف مسبقًا أنه يستطيع الهروب منها؟

أم أن مجرد امتلاك خيار العودة يجعل تجربته مختلفة تمامًا عن تجربتهم؟

وفي إحدى الليالي، بينما كانت مستلقية على سريرها تحقق في السقف الأبيض، جاءها صوت داخلي لم تستطع أن تدفعه بعيدًا.

لم يكن صوتًا غاضبًا، وإنما كان هادئًا إلى درجة مؤلمة، وقاسيًا بقدر صدقه:

«أنت خائفة، وهذا طبيعي. لكن اسألي نفسك: ممّ تخافين حقًا؟

هل تخافين الجوع؟ أم تخافين أن يراك الناس جائعة؟

هل تخافين البرد؟ أم تخافين أن يعرف الآخرون أنك عرفت البرد؟

هل تخافين الفقر؟ أم تخافين فقدان الصورة التي صنعتها عن نفسك طوال هذه السنوات؟»

وظل الصوت يتابع، كأنه يعرف الطريق إلى الأماكن التي حاولت إخفاءها:

«أنت تريدين أن تقتربي من الفقر دون أن تفقدي شيئاً. تريدين أن تنظري إلى الهاوية وأنت ممسكة بحبل النجاة. لكن الفقر ليس لحظة عابرة يمكن إنهاؤها حين تنتهي التجربة. إنه طريق طويل من الخسارات؛ خسارة المال، والمكانة، والأمان، وأحياناً ذلك الشعور الداخلي بأن للإنسان قيمة في هذا العالم.»

كانت الكلمات تؤلمها لأنها لم تجد فيها ما ترفضه.

لقد أرادت أن تفهم الفقراء، غير أنها كانت لا تزال تتمسك بكل ما يجعلها مختلفة عنهم. أرادت أن ترى العالم من الأسفل، مع بقائها واقفة على الأرض التي اعتادت الوقوف عليها. أرادت أن تعرف معنى الضعف، مع احتفاظها بالمسافة التي تمنعها من أن تصبح ضعيفة حقاً. وكان هذا التناقض هو أكثر ما يرهقها.

لأنه قادها إلى السؤال الذي ظلت تهرب منه طويلاً:

«هل أبحث فعلاً عن الحقيقة؟ أم أبحث عن تجربة تمنحني إحساساً بأنني اقتربت منها، دون أن أدفع الثمن الذي تتطلبه؟»
بقي السؤال معلقاً في الغرفة.

كان أثقل من كل الإجابات التي حاولت أن تجمعها.

ثم تذكرت ربما جملة قالتها لها إحدى زميلاتها ذات مساء، خلال حديث عابر عن تقلبات الحياة وثقل الأيام. لم تكن قد توقفت عندها وقتها. بدت مجرد فكرة عابرة خرجت من امرأة أرهقتها التجارب.

غير أنها عادت إليها الآن بمعنى آخر، كأن الكلمات كانت تنتظر هذه اللحظة كي تكشف ما أخفته.

قالت لها زميلتها:

«أتعلمين يا ريم؟ أحياناً أشعر أننا جميعاً متسولون، لكننا نتسول بطرق مختلفة. هناك من يتسول الحب، ومن يتسول الاعتراف، ومن يتسول المكانة، ومن يبحث عن الأمان. الفرق أننا نرتدي ملابس مختلفة، ونحمل شهادات ومناصب، بينما يحمل آخرون أكواباً بلاستيكية وثيراباً أرهقها الزمن. وفي النهاية، ربما لا تكون المسافة بيننا كبيرة كما نعتقد؛ فنحن جميعاً نمد أيدينا إلى شيء لا نستطيع أن نمنحه لأنفسنا وحدنا.»

في تلك الليلة، لم تعد تسمع الكلمات بالطريقة نفسها. لم تعد مجرد استعارة ذكية عن الحياة، وإنما صارت مرآة تكشف شيئاً أعمق في طبيعة الإنسان.

ربما لم تكن الحكاية عن التسول وحده.

ربما كانت عن تلك العلاقة القديمة بين من يحتاج ومن يُحتاج إليه، بين الإنسان وفراغ داخلي لا يملكه أحد إلا الآخر أن يملأه.

حتى أولئك الذين يقفون خلف المكاتب، ويحملون الألقاب، ويظهرون في المناسبات العامة بثقة محسوبة، يحملون داخلهم أيدي غير مرئية ممدودة نحو العالم؛ يطلبون القبول، والتقدير، والحب، والإحساس بأن وجودهم لم يمر دون أثر.

ربما كانت المسافة بين الرصيف والمكتب أقل مما تبدو.

فأحدهما يمد يده منتظرًا قطعة نقدية.

والآخر يمدها منتظرًا نظرة إعجاب، أو كلمة تقدير، أو إشارة صغيرة تقول له إنه مهم.

عندها أدركت ربما أن ما تبحث عنه لم يكن تجربة الفقر وحدها.

كانت تبحث عن تجربة اللقاء.

كانت تريد أن تخرج من القشرة التي أحاطت بها نفسها سنوات طويلة؛ قشرة المهنة، والتعليم، والمكانة الاجتماعية، والصورة التي رسمها الآخرون عنها. كانت تريد أن تصل إلى مساحة أكثر بدائية وأكثر صدقًا، حيث لا يبقى الإنسان أسيرًا لما يملك أو لما يمثله، وإنما يظهر في أبسط حالاته: إنسانًا يحتاج إلى إنسان آخر.

لكن هذا الإدراك، رغم عمقه، لم يمنحها الإجابة التي كانت تبحث عنها.

ظلت واقفة عند الحافة نفسها؛ بين الرغبة والخوف، بين الفضول والحذر، بين صوت الصحفية الذي يدعوها إلى الاقتراب من الحقيقة، وصوت الابنة والمرأة المنتمية إلى مجتمع له حساباته وحدوده. كانت تشعر أنها ممزقة بين ما تريده روحها، وما يسمح به واقعها.

وفي تلك اللحظة، اكتشفت شيئًا لم تكن تتوقعه: ربما لا يكون التردد دائمًا علامة ضعف. ربما يكون أحيانًا مساحة ضرورية للنضج، مكانًا يقف فيه الإنسان بين ما كان عليه وما يمكن أن يصبحه.

فالحياة لا تُبنى دائماً من قرارات حاسمة وواضحة. كثيراً ما تتشكل في المناطق الرمادية؛ في اللحظات التي لا نعرف فيها أي طريق نسلك، وفي الأسئلة التي لا نجد لها جواباً سريعاً، وفي المسافة المؤلمة بين الرغبة والخوف.

للمرة الأولى، توقفت ريمًا عن محاربة تردها.

لم تعد تراه حجراً يعترض خطاها. صار أشبه بصوتٍ خافت يسير إلى جوارها، لا يجيب عن شيء، وإنما يترك الأسئلة أكثر صفاءً. كانت تشعر أنه يشير إلى بابٍ لم تلحظه من قبل، بابٍ ظل موجوداً طوال الوقت، فيما كانت هي تؤجل النظر إليه.

وكان تردها يكتسب معنى آخر. لم يعد تأخيراً للوصول، وإنما إيقاعاً خفياً يقودها نحوه، ببطء لا يخطئ طريقه. ثمة رحلات لا تُقاس بعدد الخطوات، وإنما بالمسافة التي تنفتح داخل الإنسان وهو يظن أنه ما يزال في المكان نفسه.

هكذا بقيت ريمًا معلقة بين امرأتين. امرأة يعرفها العالم من اسمها وملامحها والمكان الذي احتلته بين الناس، وامرأة أخرى كانت تتشكل في صمت، بعيدة عن الأعين، كأنها تنتظر اللحظة التي تتوقف فيها عن الاختباء. كانت تعيش بين ذاكرة اعتادت السكن فيها، وإمكانٍ لم يمنحها ثقته بعد؛ بين ما ألفته، وما يواصل مناداتها من جهة لا اسم لها.

وفي تلك المسافة التي لا تنتمي إلى الخوف كاملاً ولا إلى الرغبة كاملة، أخذت تلمس حقيقة لم تأت في هيئة يقين. الإنسان، في نهاية

الأمر، يمضي عمره وهو يتنقل بين صورتين: واحدة يمنحها للعالم حتى تستقر علاقته به، وأخرى تؤجل ظهورها، تنتظر لحظة الصمت، حين لا يبقى شاهدٌ سوى الذات، ولا يعود ممكناً الاحتفاء بأي وجهٍ آخر.

وفي إحدى الأمسيات، كانت ريما تجلس أمام شاشة التلفاز. ذلك الصندوق المضيء الذي اعتاد أن يفتح لها نوافذ على عوالم بعيدة، وينقل إليها حكايات لا تشبه حياتها اليومية، بينما كانت حياتها الخاصة تبدو هادئة من الخارج، تخفي في داخلها ضجيجاً لا يسمعه أحد.

كانت تشاهد مسلسلاً بدوياً يستعيد حياة الصحراء؛ ذلك العالم الذي يجمع القسوة والجمال، حيث تتحرك القبائل مع حركة الرمال، وحيث يصبح الإنسان قريباً من الطبيعة، محكوماً بإيقاعها وأسئلتها الأولى عن البقاء والانتماء.

لم يكن المشهد يحمل ما يدعو إلى التوقف.

كان مجرد لحظة عابرة في مسلسل يشبه عشرات الأعمال التي شاهدتها من قبل.

إلا أن عيني ريما توقفت فجأة عند فتاة ظهرت على الشاشة.

كانت فتاة بدوية تغطي وجهها بالكامل بقطعة قماش سوداء، ولم يبقَ ظاهراً منها سوى عينيها. عياناً بدت كأنهما تحملان حياة كاملة خلفهما؛ حزناً لم يجد طريقه إلى الكلمات، وأسئلة بقيت معلقة في الصمت، ووجوداً كاملاً اختار أن يختبئ خلف طبقة رقيقة من القماش.

شعرت ربما أن تلك العينين لا تنظران من خلف نقاب فقط، وإنما من خلف جدار.

جدار يخفي الملامح، لكنه يعجز عن إخفاء ما يسكن الروح. ظلت تحديق في الشاشة دون أن تفهم تمامًا سبب ذلك الارتباك الذي أحدثته الصورة في داخلها. كان هناك شيء مألوف في تلك العينين؛ شيء يشبهها هي. فقد كانت تخفي وجهًا أيضًا، وإن لم يكن خلف قطعة قماش. كانت تخفيه خلف اسمها، ومهنتها، والصورة التي صنعها الآخرون عنها عبر السنوات.

وفجأة أدركت أن الإنسان لا يرتدي ثيابه فقط، وإنما يرتدي هوياته أيضًا.

وأن بعض الوجوه لا تختبئ لأنها ترفض الظهور، وإنما لأنها تخشى اللحظة التي يراها فيها الآخرون كما هي، دون الحواجز التي اعتادت الاحتماء بها.

وفي تلك اللحظة، وكأن شرارة خفية انتقلت من الشاشة إلى أعماق وعيها، ظهرت الفكرة التي ظلت تبحث عنها منذ أسابيع.

لم تأتِ هذه المرة كخاطر عابر أو احتمال بعيد، وإنما ظهرت واضحة، مكتملة، كأنها كانت تنتظر اللحظة المناسبة كي تعلن عن وجودها.

لماذا لا تخفي وجهها بالطريقة نفسها؟

لماذا لا ترتدي عباءة سوداء واسعة تخفي تفاصيل جسدها، وتضع

نقابًا لا يترك ظاهرًا منها سوى عينيها؟ عيناں بلا اسم، وبلا تاريخ، وبلا صورة سابقة يمكن لأحد أن يقارنها بها.

فإذا أصبحت مجرد عينيں خلف قطعة قماش سوداء، فمن سيعرفها؟ حتى لو صادفها أخوها في الطريق، ذلك الرجل الذي يقضي ساعات طويلة في شوارع المدينة بحكم عمله مراقبًا صحيًا في البلدية، ينتقل بين الأسواق والمحلات، ويراقب أحوال الباعة والمخالفات، ويمر أحيانًا بأولئك الذين يجلسون على الأرصفة طلبًا للمساعدة، فلن يخطر بباله للحظة أن المرأة المنحنية أمامه، التي تمدها للغرباء، يمكن أن تكون أخته.

لأن الإنسان حين يعتاد رؤية الآخرين من خلال الصور التي صنعها عنهم، قد يعجز أحيانًا عن التعرف إليهم حين تسقط تلك الصور.

فالصورة التي يحملها الإنسان عن الأشخاص الذين يحبهم لا تتغير بسهولة. أخوها يعرف ريما الصحفية، المرأة الأنيقة، الواثقة، التي تظهر في المناسبات العامة وتحمل دفتر ملاحظاتها. لكنه لا يعرف هذه المرأة الأخرى؛ المرأة الصامتة التي تخفي وجهها، وتجلس على الأرض، ولا تملك سوى انتظار عابر يقرر أن يراها.

كانت الفكرة بسيطة إلى درجة أدهشتها.

كل هذا التردد، وكل هذه الحسابات، وكل تلك المخاوف التي ظلت تدور في رأسها أسابيع، ربما لم تكن تحتاج إلى حل معقد. ربما كان يكفيها فقط أن ترى صورة واحدة، صورة امرأة تختبئ خلف نقاب، لتجد الباب الذي كانت تبحث عنه.

نهضت ريمًا من مكانها، وغادرت الغرفة وكأنها تحمل سرًا جديدًا. كان هناك شيء مختلف في خطواتها؛ خفة لم تشعر بها منذ زمن، وإحساس غامض بأنها اقتربت أخيرًا من شيء ظل بعيدًا عنها. لم تعد تخطط كإنسانة خائفة.

بدأت تخطط كصحفية تستعد لأهم تحقيق في حياتها.

كانت تعرف أن التفاصيل الصغيرة هي التي تصنع الفارق. عليها أن تختار العبادة المناسبة، والنقاب الذي يخفي ملامحها جيدًا، والمكان الذي لا يكون قريبًا من دائرة معارفها، لكنه في الوقت نفسه قريب بما يكفي من الجامعة. عليها أن تختار الوقت الذي تكثر فيه حركة الناس، حيث يمكنها أن ترى العالم كما هو، لا كما يظهر في التقارير.

كانت ترتب الاحتمالات في ذهنها واحدة بعد أخرى، وكأنها تعد ملفًا سرّيًا. المكان، والزمان، والملابس، وطريقة الجلوس، وحتى الطريقة التي ستحرك بها يدها.

وشعرت، للمرة الأولى منذ فترة طويلة، بشيء يشبه الحماس. كان في الأمر شيء من المغامرة، شيء من عبور الحدود نحو منطقة لا تعرف خرائطها. شعرت أنها لا تستعد للاختباء عن الآخرين فقط، وإنما ربما للاختباء عن النسخة القديمة من نفسها؛ تلك المرأة التي عاشت سنوات طويلة داخل اسمها، ومكانتها، والصورة التي صنعها العالم عنها.

كانت على وشك أن تخلع هوية كاملة، وترتدي هوية أخرى.

هوية امرأة لا يعرفها أحد.

هوية إنسان بلا اسم.

هوية شخص يمر الناس بجانبه دون أن يسألوا عن قصته.

وفي صباح اليوم التالي، خرجت من المنزل قبل أن تستيقظ المدينة تمامًا. اتجهت نحو السوق الشعبي، حيث تصطف المحال الصغيرة التي تبيع الملابس التقليدية والأقمشة السوداء.

كانت تشعر بشيء من الغربة وهي تمشي بين الأكشاك. توقفت أمام العباءات المعلقة، ومدت أصابعها نحو الأقمشة بتردد، كأنها لا تختار قطعة ملابس، وإنما تختار جسدًا جديدًا ستسكنه لبعض الوقت.

كان لكل قطعة ملمسها الخاص ورائحتها الخاصة، كأنها تحمل آثار النساء اللواتي ارتدينها من قبل؛ خطواتهن الصامتة، وأيامهن التي مرت دون أن يعرفها أحد.

اختارت عباءة سوداء واسعة تنسدل من الرأس حتى القدمين، ونقابًا كثيفًا لا يترك ظاهرًا سوى العينين.

وعندما وقفت أمام امرأة صغيرة في المحل بعد أن ارتدته، بقيت ساكنة طويلاً.

لم تعرف المرأة التي تنظر إليها.

وللمرة الأولى، لم يكن هذا الشعور مخيفًا تمامًا.

كان يحمل شيئًا يشبه الراحة.

خلف ذلك القماش الأسود، اختفت ربما التي يعرفها الناس. اختفت الصحفية، والباحثة، والمرأة التي يحمل اسمها تاريخاً من الإنجازات والانتظارات. لم تعد هناك نظرات تقيسها، ولا أحكام تسبق حضورها، ولا صورة جاهزة تدخل المكان قبلها.

أصبحت قادرة على أن تكون شخصاً آخر.

أو ربما أصبحت قادرة، للمرة الأولى، على أن تكون بلا تعريف محدد.

وكان في هذا الغموض نوع من الحرية.

كانت تعرف أنها وصلت إلى نقطة يصعب بعدها التراجع بسهولة. لم تعد الفكرة مجرد احتمال يمر في ذهنها، وإنما أصبحت قراراً اتخذته جسدها قبل أن تتبناه كلماتها. كانت على وشك الدخول إلى العالم الذي طالما كتبتَه ووصفته، دون أن تعرف كيف يشعر الإنسان حين يجد نفسه داخله.

وكانت تحتاج إلى ذلك كما يحتاج الإنسان إلى نافذة حين يطول بقاؤه في غرفة مغلقة.

شعرت أن حياتها المهنية، بكل أخبارها وتصريحاتها وتقاريرها، تحولت فجأة إلى غرفة مرتبة أكثر مما ينبغي؛ غرفة لا ينقصها الضوء، وإنما ينقصها الهواء. وكانت بحاجة إلى فتح نافذة، حتى لو دخل منها برد قاسٍ يوقظ الأشياء النائمة في داخلها.

وفي صباح اليوم التالي، ارتدت العباءة والنقاب.

وقفت أمام مرآة غرفتها للمرة الأخيرة.
نظرت إلى المرأة التي تقف في الجهة الأخرى.
لم تكن ريما التي اعتادها الجميع.
كانت امرأة غريبة، مع ذلك لم تكن غريبة عنها تمامًا.
امرأة تحمل في عينيها الخوف نفسه، والفضول نفسه، والرغبة نفسها
في تجاوز الحدود التي رسمتها الحياة حولها.
ثم خرجت من المنزل.
اختارت شارعًا جانبيًا قريبًا من الجامعة؛ مكانًا لا يبعدها كثيرًا عن
العالم الذي تعرفه، ولا يجعل احتمال انكشافها قريبًا. مكانًا يمر به عدد
كافٍ من الناس، دون أن يغرقها في ذلك الرعب الذي ظل يرافقها منذ
أن خطرت لها الفكرة الأولى.
جلست على الرصيف.
مدت يدها.
وانتظرت.
في تلك اللحظة، لم تكن تعرف ما الذي سيحدث.
هل سيضع أحدهم نقودًا في الكوب؟
هل سيمر الناس بجانبها كما لو أنها جزء من الرصيف؟
هل سيتوقف شخص ليسألها عن قصتها؟
أم ستكتشف أن كل ما بنته في خيالها لم يكن سوى وهم آخر من
أوهام الإنسان حين يحاول الاقتراب من حياة لا يعرفها؟

في الدقائق الأولى، كان الخوف يسكن جسدها كله.
كان شعورها يشبه شعور شخص دخل نهرًا لا يعرف اتجاه مياهه.
كانت تسمع وقع الخطوات حولها، وتشعر بحركة الأجساد القريبة،
وتتظر في كل لحظة أن ينكشف السر الذي تخفيه.

ثم بدأ شيء آخر يتشكل ببطء.

شيء يشبه التحرر.

فقد بدأت تشعر أنها تخلت، ولو مؤقتًا، عن ثقل ريما القديمة؛ عن
الاسم، والوظيفة، والتوقعات، والمسؤوليات التي حملتها سنوات
طويلة حتى أصبحت جزءًا من جلدها.

جلست صامتة.

لم تعد تنظر إلى الوجوه.

كانت ترى الأقدام فقط.

الأحذية التي تعبر بسرعة.

الخطوات التي لا تتوقف.

العالم من زاوية منخفضة لم تعرفها من قبل؛ زاوية الذين يرون
حركة الحياة من أسفلها، لا من مقاعدها الأمامية.

ومن مكانها على الرصيف، بدا لها أن الإنسان يقضي معظم حياته
واقفًا، ولذلك ينسى كيف يبدو العالم من الأرض.

كانت السماء بعيدة.

والناس أكبر مما اعتادت أن تراهم.
والمدينة التي ظنت أنها تعرفها أصبحت مدينة أخرى.
وفي تلك اللحظة، بين الخوف والتحرر، بدأت تفهم شيئاً لم تدركه
من قبل.

أن جلوس المتسولين على الأرصفة ليس مجرد انتظار للنقود.
إنه انتظار للاعتراف.

إنه محاولة للبقاء مرئيين في عالم يمر بهم سريعاً.
إنه شكل من أشكال المقاومة الصامتة ضد الاختفاء.
وأدركت أن التخفي الذي اختارته لم يكن فقط وسيلة كي لا يعرفها
الآخرون.

لقد كان طريقاً لاكتشاف شيء آخر.
اكتشاف أن الإنسان ليس وجهًا واحدًا يراه الناس، ولا اسمًا يحمله،
ولا وظيفة يؤديها. الإنسان طبقات من الحكايات المخفية، ومساحات
لا يراها أحد، وأرواح كاملة تعيش خلف الأقنعة التي نرتديها؛ بعضها
نختارها، وبعضها يُفرض علينا.
وربما، فكرت ربما، فإن أصعب الأقنعة ليست تلك التي تخفي
وجوهنا.

كانت تلك التي تجعلنا نصدق أننا نعرف أنفسنا.
كانت ربما تقف أمام باب مكتب مديرها المباشر في الجامعة.

ذلك الباب الخشبي الثقيل الذي عبرته مئات المرات خلال سنوات عملها، وهي تحمل الملفات، ودفتر الملاحظات، والأسئلة الصحفية التي لا تنتهي، بدا لها في ذلك الصباح مختلفاً تماماً. لم يعد مجرد باب يقود إلى مكتب إداري، وإنما أصبح حدًا فاصلاً بين حياتين؛ حياة عاشت داخلها طويلاً، وحياة أخرى بدأت تفتح عينيها عليها دون أن تعرف إلى أين ستقودها.

وقفت لحظات أمامه، تلتقط أنفاسها، وتحاول تهدئة قلبها الذي كان يخفق بإيقاع لم تألفه من قبل. كان جسدها يسبق عقلها إلى الخوف، كأن قلبها يريد أن يدخل قلبها، وأن يقول للرجل الجالس في الداخل ما عجزت هي عن صياغته بالكلمات.

كانت تعرف أن ما ستطلبه ليس طلباً عادياً.

لم تكن تطلب إجازة من العمل فحسب.

كانت تطلب فسحة زمنية تنسحب فيها قليلاً من حياتها المعتادة، بحثاً عن إجابة لسؤال ظل يرافقها حتى في لحظات الصمت. سؤال لم تستطع أن تضعه أمام أحد؛ لأن كيف يمكن للإنسان أن يشرح رغبته في الابتعاد كي يقترب من ذاته؟ كيف يمكن أن يقول لرئيسه إن الإجازة ليست من المهام اليومية، وإنما من الشخصية التي بناها حول نفسه عبر سنوات طويلة؟

طرقت الباب برفق، كأنها تمنح نفسها فرصة أخيرة للعودة.

جاءها صوته المؤلف:

«تفضلي.»

دخلت.

كانت الغرفة كما عرفتھا دائماً؛ مكتب واسع تتراكم فوقه الملفات والأوراق، جهاز حاسوب يواصل عمله بهدوء، صور عائلية تستقر على الرف، وستائر خفيفة تتحرك أمام النافذة المطلة على الحديقة الجامعية. لم يتغير شيء في المكان، ومع ذلك شعرت ريمًا بأن كل شيء قد تغير. ربما لأن العين التي ترى لم تعد العين نفسها.

رفع مديرھا رأسه ونظر إليها باهتمام.

كان رجلاً عرفته سنوات طويلة. لم يكن في نظرها مجرد مسؤول إداري، وإنما شخص قريب يشبه صديقاً قديماً؛ يعرف طريقة عملها، ويعرف دقتها، ويعرف أن ريمًا التي تدخل مكتبه عادة لا تأتي إلا ومعها خطة واضحة، أو سؤال محدد، أو فكرة اكتملت ملامحها قبل أن تُقال. أما المرأة التي وقفت أمامه ذلك الصباح، فلم تكن ريمًا نفسها تماماً.

كان في وقفتهما تردد خفي، وفي عينيها حذر لا يشبهها، وفي صمتها إحساس بأن كلمات كثيرة تقف خلف الباب ولا تجد طريقها إلى الخارج.

قالت بعد لحظة صمت:

«يا سيدي... أطلب منك منحي إجازة لمدة شهر كامل.»

خرجت الكلمات هادئة، لكنها بدت لها كأنها سقطت في الغرفة
بثقل شيء لا يمكن تجاهله.

توقف مديرها لحظة، ووضع القلم الذي كان يحمله جانباً، ثم مال
قليلاً إلى الأمام.

«شهر كامل؟ ماذا حدث يا ريما؟»

لم يكن صوته يحمل غضباً، وإنما دهشة حقيقية وشيئاً من القلق.
فقد جاء طلبها بعيداً عن الصورة التي عرفها عنها طوال السنوات
الماضية. بدا له الأمر كأنها تخبره بأنها ستغادر الجامعة فجأة، لا أنها
تحتاج إلى إجازة مؤقتة.

وكانت دهشته مفهومة.

فريما لم تكن موظفة عادية في نظره. كانت صورة نادرة للالتزام
الذي يصعب العثور عليه. كانت تصل قبل الجميع، وتغادر بعد
معظمهم. كانت تقبل تغطية الفعاليات التي يتجنبها الآخرون، وتعمل
في العطلات حين تحتاج الصحيفة إلى جهد إضافي، وتتعامل مع مهامها
كما لو أنها جزء من مسؤوليتها الشخصية، لا مجرد وظيفة تنتهي بانتهاء
ساعات الدوام.

ولهذا، ربما لم يكن السؤال الحقيقي الذي أراد طرحه: «لماذا
تطلبين الإجازة؟»

كان السؤال الأعمق: «ما الذي حدث للمرأة التي كنت أعرفها؟»
كانت قد جعلت من العمل جزءاً من تعريفها لنفسها.

وربما لهذا السبب بالذات، كان طلبها المفاجئ يثير القلق.

أعادت ريما:

«نعم... أريد شهراً كاملاً.»

هذه المرة كان صوتها أكثر ثباتاً.

لم تكن تحاول إقناعه فقط، وإنما كانت تثبت لنفسها قبل أي شخص آخر أنها اتخذت قرارها، وأن الطريق الذي اختارته لم يعد يسمح لها بالعودة إلى النقطة التي بدأت منها.

نظر إليها مديرها طويلاً.

كانت عيناه تحاولان قراءة ما تخفيه الكلمات. كان يشعر أن خلف هذا الطلب حكاية أكبر من مجرد تعب عابر أو رغبة في الراحة. كان يرى في ملامحها سؤالاً عميقاً لم يجد بعد طريقه إلى الصوت.

قال بهدوء:

«ليس هناك مشكلة من حيث المبدأ... لكنك خلال سنوات عملك هنا لم تطلبي إجازة تتجاوز يومين أو ثلاثة. أنت أكثر شخص أعرفه ارتباطاً بالعمل. لذلك أسألك: ما الأمر؟»

لم يكن سؤاله بدافع الفضول، وإنما بدافع اهتمام حقيقي.

كان يتذكر كل المرات التي نصحتها فيها بأن تمنح نفسها بعض الراحة، فكانت تبسم وترفض. يتذكر الأيام التي حضرت فيها رغم المرض، والساعات الطويلة التي بقيت فيها داخل المكتب بعد انتهاء

الدوام. كان يعرف أنها لا تعمل فقط لأنها تحب عملها، وإنما ربما لأنها كانت تخشى شيئاً آخر؛ تخشى الفراغ، وتخشى اللحظات التي تجد فيها نفسها وحيدة أمام ذاتها دون مهمة تشغلها، أو موعد تنتظره، أو تقرير تكتب عنه.

ولهذا كان ينظر إليها الآن بشيء من الدهشة.

لأن المرأة التي أمامه، للمرة الأولى منذ عرفها، لم تكن تبحث عن ملجأ داخل العمل.

كانت تطلب الابتعاد عنه.

«هذا صحيح... لكن هناك أشياء كثيرة تغيرت في حياتي.»

قالت ربما ذلك، وهي تدرك في اللحظة نفسها أن الجملة أصغر بكثير من الحقيقة التي تحملها. كانت تحاول أن تختصر عالمًا كاملاً من التحولات الداخلية في كلمات قليلة.

كيف يمكنها أن تشرح له أنها لم تعد ترى الشارع كما كانت تراه من قبل؟

كيف تخبره أنها أصبحت تتوقف عند وجوه المتسولين، لا لتأمل ملامحهم فقط، وإنما لتسأل نفسها عن القصص المختبئة خلف تلك الوجوه؟

كيف تشرح له أنها لم تعد تكتفي بمعرفة الفقر من خلال الكتب والتقارير، وإنما أصبحت ترغب في الاقتراب منه حتى تسمع صمته وتشعر بثقله؟

كيف تقول له إنها فكرت في ترك مكتبها، ودفتر ملاحظاتها، واسمها المعروف، وأن تجلس على الرصيف بين أولئك الذين كانت تكتب عنهم؟

كيف تشرح أن حاجتها إلى الإجازة ليست بحثًا عن الراحة، وإنما رغبة في الاختفاء؟

اختفاء مؤقت عن الصورة التي صنعتها حول نفسها.

رغبة في أن تخلع هويتها كما يخلع الإنسان ثوبًا ضاق عليه بعد سنوات من ارتدائه.

رغبة في الابتعاد قليلاً عن المرأة التي يعرفها الجميع، بحثًا عن امرأة أخرى لم تلتقِ بها بعد.

كان كل ذلك أكبر من أن يُقال في مكتب، وأعمق من أن يفهم من خلال لغة العمل والإجازات والالتزامات.

نظر إليها مديرها بتأمل، ثم حاول أن يبحث عن تفسير مألوف لهذا الطلب غير المتوقع.

«إذن... هل هناك أمر معين؟ مشروع خطوبة؟ زواج؟ سفر؟»

قالها بابتسامة خفيفة، كأنه يحاول العثور على مفتاح منطقي للباب المغلق أمامه. ففي عالمه، كانت الإجازات الطويلة غالبًا مرتبطة بأحداث واضحة؛ مناسبة عائلية، ارتباط، زواج، أو سفر. أما أن تطلب امرأة مثل ريما شهرًا كاملاً لأنها تحتاج إلى إعادة اكتشاف نفسها، فكان احتمالاً لا يظهر بسهولة في حساباته.

ابتسمت ريما ابتسامة صغيرة.

كانت ابتسامة تحمل شيئاً من الحزن، وشيئاً من المفارقة، وشيئاً من العجز أمام الأشياء التي لا تجد لغة مناسبة لها.

«لا... لا تذهب بعيداً في تخميناتك. الأمر أبسط من ذلك... أريد فقط أن آخذ إجازتي السنوية.»

قالتها بهدوء، كأنها تغلق الباب أمام كل الاحتمالات التي حاول أن يفتحها. لكنها كانت تعرف في داخلها أن الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك، وأن كلمة «إجازة» لم تكن سوى الاسم الرسمي لرحلة لا تعرف كيف تسميها.

ظل مديرها ينظر إليها لحظات.

كان يشعر بأن هناك شيئاً خلف كلماتها، شيئاً لم تقله. لكنه عرف ريما بما يكفي ليدرك أنها ليست من الأشخاص الذين يتخذون قراراتهم دون سبب. فإذا كانت تطلب هذا الابتعاد، فلا بد أن شيئاً عميقاً قد دفعها إليه.

تنهد، ثم قال:

«حسناً يا ريما. إذا كان هذا ما تريدينه، فلا مانع لدي. يمكنك البدء بإجازتك من الأسبوع القادم. لكن أرجوك، إذا كان هناك أي شيء يمكنني مساعدتك فيه، فأخبريني. أنت تعرفين أن بابي مفتوح لك دائماً.»

كانت كلماته دافئة وصادقة. لم تكن كلمات مدير لموظفة فقط، وإنما كلمات إنسان لإنسان آخر.

وربما لهذا السبب تحديداً شعرت ربما بثقل السر الذي تحمله؛ لأن بعض الأسرار لا تصبح أثقل حين نخفيها عن الآخرين، وإنما حين نجد أماناً شخصاً قد يفهمها لو امتلكننا الشجاعة لقولها.

شعرت بالامتنان لهذا الرجل الذي منحها ثقته دون أن يعرف الحقيقة، لكنها شعرت أيضاً بشيء من الذنب؛ لأنها تخفي عنه أمراً لو عرفه ربما لم يفهمه، وربما لم يستطع تصديقه. شكرته، ثم خرجت من المكتب.

وفي اللحظة التي أغلقت فيها الباب خلفها، شعرت بشيء يتغير داخلها.

لم يكن شعور انتصار.

ولم يكن شعور راحة كاملة.

كان مزيجاً غريباً من التحرر والخوف.

فهي لم تعد تملك الحجة التي كانت تختبئ خلفها. لقد حصلت على ما تريد. أصبح الطريق مفتوحاً أمامها، ولم يبق سوى أن تمشي فيه.

كانت تعرف أن الشهر القادم لن يكون شهر راحة.

سيكون شهر مواجهة.

مواجهة مع نفسها قبل أي شيء آخر.

كانت على وشك أن تعبر إلى عالمٍ لم تعرفه إلا من مسافة آمنة؛ عالم الأرصفة، والوجوه التي تمر من دون أن تُحفظ في الذاكرة، والأيدي التي تبقى معلقة بين الرجاء والصمت. ومع ذلك، لم يعد يبدو لها مكانًا منفصلاً عن سائر الأمكنة. بدا كأنه الوجه الذي يخفيه العالم تحت أسمائه اللامعة، حيث يقف الإنسان عاريًا من كل ما استعاره من منصبٍ أو اسمٍ أو صورة.

ومع كل خطوة كانت تبتعد بها عن مكتب المدير، أحست أن شيئًا يغادرها في هدوء، من غير ضجيج الوداع. لم يكن الماضي ينهار، وإنما كان يفقد سلطته عليها. المرأة التي اعتادت أن تجد جوابًا لكل موقف أخذت تتوارى شيئًا فشيئًا. المرأة التي احتمت طويلًا بالجدول والمواعيد والتقارير، والتي صدقت أن انشغالها الدائم قادر على تأجيل الأسئلة، راحت تذوب في صمت لا يقاوم.

وكانت تمضي نحو امرأة أخرى، امرأة لم تتعرف إلى ملامحها بعد، كأنها لم تولد إلا في هذا التأخر نفسه. امرأة ستجلس يومًا على الرصيف، تخفي وجهها، لا لتختبئ من الناس، وإنما لتقترب منهم للمرة الأولى. هناك، من مستوى النظر الذي لا تمنحه المكاتب ولا المقاعد الوثيرة، سيبدو العالم أقل يقينًا، وأكثر صدقًا.

لم تكن تعرف إن كانت تلك التجربة ستمنحها حياة جديدة، أم ستجردها مما بقي لها من يقين. بعض الطرق لا تكشف معناها لمن يتأملها من بعيد، وبعض الأبواب تظل صامته إلى أن تعبرها الأقدام.

عند تلك اللحظة، لم يعد القرار فكرة تنتظر البرهان. صار خطوة، والخطوة أخذت تحملها إلى المكان الذي ظل، طوال الوقت، ينتظر وصولها.

والخطوة، مهما بدت صغيرة، هي اللحظة التي يتحول فيها الحلم من فكرة في العقل إلى حياة تُعاش.

خرجت ربما من مبنى الجامعة وكأنها تحمل في صدرها طائرًا ظل طويلاً خلف القضبان. لم يكن يعرف بعد إلى أين سيطير، لكنه لم يعد قادرًا على البقاء في القفص.

كانت خطواتها بطيئة وثقيلة، كخطوات من يمشي على جبل مشدود بين عالمين؛ عالم تعرفه بكل تفاصيله، وعالم مجهول ينتظرها خلف ستار أسود.

بين هوية ارتدتها سنوات حتى أصبحت جزءًا من جلدها، وهوية جديدة لا تعرف إن كانت ستمنحها الحرية أم ستكشف لها هشاشتها. كانت تعلم أن مديرها ربما خرج من اللقاء وهو يعتقد أن هناك سرًا عاطفيًا تخفيه، ربما زواجًا أو ارتباطًا أو أمرًا عائليًا. ولم تكن تلومه؛ فبعض الحقائق تكون غريبة إلى درجة أن الإنسان يبحث لها عن تفسير أكثر بساطة.

لكنها لم تكن بحاجة إلى أن يصدقها أحد.

لأن ما كانت تحمله في أعماقها لم يكن مشروعًا ينتظر الشرح، وإنما سؤالًا لا يمنح معناه إلا لمن يقبله حياةً كاملة.

ومع كل خطوة، كانت المسافة تتغير على نحوٍ لا تراه العين. لم تكن تغادر المكتب وحده، وإنما تبتعد، في هدوء يكاد لا يُسمع، عن المرأة التي اعتادت أن تكونها.

الإجازة التي حصلت عليها بدت، في ظاهرها، غيابًا مؤقتًا عن العمل. أما في الداخل، فكانت انفصاليًا هادئًا عن نظام كامل من العادات واليقين. كأنها مُنحت فرصةً لتخفي من حياتها الخاصة، ولو إلى حين، حتى ترى ما الذي يبقى عندما تراجع الأسماء والأدوار إلى الخلف.

ثمة ضياع لا يحمل معنى الهزيمة. ضياع يشبه فسحةً يتركها الطريق في قلب المسافر، ليكتشف أن الخرائط لا تُرسم دائمًا قبل الرحلة، وأن الوجهة قد تولد أثناء السير إليها.

جلست ربما في غرفتها، الغرفة التي عرفت تفاصيلها كما يعرف الإنسان ملامح وجهه من غير حاجة إلى مرآة. كانت تعرف مكان كل كتاب على الرف، وكل صورة على الجدار، وكل قطعة أثاث احتفظت بأثر الأيام التي عبرت بها. لم تكن الأشياء مجرد أشياء؛ كانت ذاكرةً صامتة تمنح الحياة شكلًا مألوفًا، وتجعل الطمأنينة تبدو عادة أكثر منها شعورًا.

غير أن الغرفة، في تلك الليلة، استعادت وجودها بطريقة لم تعهدها من قبل. رفعت ربما عينيها إليها كما لو أنها تدخلها للمرة الأولى. بدت التفاصيل مألوفة إلى حد الغرابة، وكأن المكان ظل ثابتًا طوال السنوات، فيما الذي كان ينظر إليه هو الذي تبدل.

لم تكن عينا امرأة تستقر في مكانها، وإنما عينا شخصٍ يتهيا لعبور شيء لا يعرف اسمه بعد.

كانت تعرف أنها ستعود إلى هذه الغرفة بعد شهر. ستفتح الباب ذاته، وتجلس على الكرسي نفسه، وستلتقي بالكتب والصور والأشياء التي تركتها خلفها. ومع ذلك، كان يقين غامض يسكنها: المرأة التي ستعود لن تكون المرأة التي تقف الآن عند عتبة الرحيل.

أخذت تتأمل ملابسها المعلقة في الخزانة، حذاءها الأنيق، حقيبتها، زجاجات العطر، والتفاصيل الصغيرة التي ساهمت في رسم صورتها أمام الآخرين. ثم مرّ السؤال في داخلها، هادئًا وثقيلاً:

«أي شيء من هذه الأشياء ينتمي إليّ حقاً؟ وأي شيء منها مجرد طبقة اعتدت ارتداؤها حتى نسيت أنها ليست جلدي؟»

بدا السؤال بسيطاً في ظاهره، غير أن صداه كان أعمق من حدود الأشياء. كان يتجه نحو الإنسان نفسه، نحو تلك العلامات التي يجمعها حوله حتى تتحول مع الوقت إلى تعريف له. كم من الأشياء نحملها لأننا نحتاجها، وكم منها نحملها لأننا نخشى اكتشاف من نكون من دونها؟

أدركت أنها لن تحتاج إلى الكثير.

عباءة سوداء.

نقاب يخفي وجهها.

حذاء بسيط.

كوب بلاستيكي .

وقليل من النقود يكفيها لتبدأ، حتى لا تتحول تجربتها إلى مراقبة باردة لحياة الآخرين .

لم تكن تبحث عن الفقر بوصفه مشهداً، ولا عن الألم بوصفه تجربة يمكن امتلاكها ثم العودة منها . كانت تريد الاقتراب من تلك الحافة التي يقف عندها الإنسان حين تتساقط عنه الحواجز التي اعتاد الاحتماء بها؛ المنطقة الغامضة بين الطمأنينة والقلق، بين أن يكون حاضراً في أعين الناس، وأن يصبح مجرد عابر لا يترك خلفه أثراً .

ومع ذلك، كانت تعرف أن أصعب ما في التجربة لن يكون العباءة، ولا الرصيف، ولا الساعات الطويلة التي ستقضيها بين الغرباء .
كان أصعب ما فيها عينيها .

فالإنسان يستطيع أن يخفي ملامحه، أن يبدل صوته، أن يختار اسماً آخر . أما النظرة فتبقى أكثر وفاءً للحقيقة . تحمل ما مرّ به صاحبها، وتترك على سطحها آثار الخوف والانتظار والأسئلة التي لم تجد طريقها إلى الكلام .

كانت تخشى أن تكشف عيناها المرأة التي يعرفها الجميع؛ الصحفية الواثقة، التي اعتادت أن تقف خلف دفتها، تراقب العالم من موقع من يملك المسافة الكافية للحكم والفهم .

كيف يمكن لعينين اعتادت مراقبة الآخرين أن تتعلما فجأة معنى أن تكونا في دائرة النظرات؟

في تلك الليلة، جلست أمام المرأة وقتًا طويلاً.

ارتدت النقاب ثم نزعته. عادت تنظر إلى عينيها كما لو أنها تبحث عن غريبة تسكن خلفهما. لم تكن تريد تغيير شكلهما، وإنما محاولة الوصول إلى ما يختبئ وراءهما. كانت تبحث عن نظرة امرأة اعتادت الانتظار، امرأة لا تعرف إن كان الصباح سيحمل لها نجاة أم خيبة، امرأة لا تمتلك خطة واضحة للغد، لأن الغد بالنسبة لها ليس أكثر من امتداد مفتوح للحظة الراهنة.

ثم بدأت تتخيل المارة.

تخيلت وجوههم وهي تمر بجانبها، العيون التي سترها ولا تراها، والخطوات التي ستعبر قربها من غير أن تتوقف. ولأول مرة، شعرت أن السؤال لم يعد: كيف ترى هي العالم؟ وإنما: كيف سيبدو العالم عندما لا يراها أحد؟

تخيلت الأيدي التي قد تمتد إليها بالنقود، والوجوه التي قد تمر دون أن تراها، والأسئلة التي قد يطرحها بعضهم، والصمت الذي سيحيط بها في أوقات أخرى.

كانت تتدرب على كل شيء.

كيف ستشكر من يساعدها؟

كيف ستصمت أمام من يتجاهلها؟

كيف ستتصرف عندما لا يأتي أحد؟

كيف ستبقى جالسة دون أن تهرب إلى عالمها القديم؟

وفي تلك الساعات الطويلة، شعرت بأنها لم تعد صحفية تستعد
لكتابة تحقيق.

كانت أقرب إلى ممثلة تستعد لأصعب أدوار حياتها؛ دور امرأة
لا تعرفها، لكنها تريد أن تتعلم منها شيئاً لم تستطع كل الكتب
والمحاضرات والتقارير أن تعلمها إياه.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت قبل شروق الشمس.
كان في استيقاظها شيء من الطقوس، كأنها تستعد لعبور حد فاصل
بين زمنين. ارتدت العباءة السوداء، وضعت النقاب على وجهها، ثم
وقفت أمام المرأة للمرة الأخيرة.

نظرت إلى انعكاسها.

لم ترَ ربما الصحفية.

رأت امرأة بلا اسم.

امرأة يمكن أن تمر في الشارع دون أن يلتفت إليها أحد.

امرأة خرجت من عالم التعريفات الجاهزة، ومن الصور التي صنعها
الآخرون عنها.

وللمرة الأولى، لم يعد اختفاء ملامحها مجرد فقدانٍ لما اعتادت أن
تتمسك به. كان يحمل في داخله إحساساً غامضاً بالتححرر، كأن الوجه
الذي أخفته لم يكن وجهاً ضائعاً، وإنما مساحة جديدة تستطيع أن ترى
فيها نفسها بعيداً عن الصور التي رسمها الآخرون لها.

كانت تعرف أنها تقف على عتبة عالم جديد. عالم لا تعرف قوانينه، ولا تعرف كيف سيستقبلها. قد يكون قاسياً، وقد يكون صادمًا، وقد لا يمنحها الإجابات التي تبحث عنها. وربما ستكتشف أن كل ما تخيلته كان مختلفًا عن الواقع.

لكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا:

أن السؤال الذي لا نجرؤ على اختباره يبقى سؤالاً إلى الأبد.
وأن الإنسان قد يندم على الطريق الذي سار فيه، لكنه يندم أكثر على الطرق التي خاف أن يسلكها.
خرجت من المنزل.

كان الشارع لا يزال هادئًا، والمدينة تستيقظ ببطء. اتجهت نحو المكان الذي اختارته بعناية؛ شارع جانبي قريب من الجامعة، يمر به الناس دون أن يكون مزدحمًا إلى درجة تثير انتباههم.
في البداية كانت خطواتها ثقيلة.

كان جسدها كله يدعوها إلى العودة.

إلى الغرفة الآمنة.

إلى الاسم المعروف.

إلى الحياة التي تعرف قوانينها.

لكنها واصلت السير.

كانت تهمس لنفسها بأن الشجاعة لا تولد من اختفاء الخوف، وإنما من تلك اللحظة التي يقرر فيها الإنسان أن يمضي وهو يحمله معه.

وعندما وصلت إلى المكان، جلست على الرصيف.

وضعت الكوب أمامها.

مدّت يدها.

ثم أغمضت عينيها للحظة، كأنها تترك خلفها اسمًا قديمًا، وحياة اعتادت أن تسكنها. وحين فتحتهما، لم تعد ترى العالم من خلف مكتب، أو شاشة، أو صفحات كانت تمنحها دائمًا مسافة آمنة. كانت تراه من مستوى الأرض؛ من المكان الذي يبدأ منه الانتظار.

من زاوية الإنسان الذي لا يملك سوى اللحظة التي بين يديه.

الإنسان الذي لم يعد يراقب الحكايات من الخارج، وإنما وجد نفسه داخل واحدة منها.

في صباح اليوم الأول من إجازتها، استيقظت ربما قبل أن يكتمل حضور النهار. كانت المدينة ما تزال غارقة في سكونها الأول، قبل أن تستعيد أصواتها وخطواتها وازدحامها. كأنها أرادت أن تسبق الزمن قليلاً، وأن تنتزع من الساعات الأولى مساحة معلقة بين حياتين؛ بين لحظة الاستيقاظ ولحظة العبور، بين ربما التي عاشت أعوامًا خلف اسمها ومكانتها، وربما التي ستخرج بعد قليل إلى الشارع حاملة وجهًا لا يعرفه أحد.

كانت الغرفة غارقة في عتمة خفيفة. الستائر مغلقة بإحكام، لا تحجب ضوء الصباح فقط، وإنما تؤجل وصول العالم إليها. منحتها العزلة التي تحتاجها كي تمر بهذا التحول الصامت، كأنها تدخل طقسًا لا يراه أحد سواها.

لم تكن تستعد لمغادرة المنزل فقط. كانت تستعد لمغادرة صورة كاملة صنعتها السنوات. كانت تترك خلفها المرأة التي عرفها الآخرون، وتمضي نحو امرأة أخرى ستعيش شهراً كاملاً تحت نقابها، وعلى أرصفة لم تلمسها من قبل إلا بعيني المراقب.

وقفت أمام المرأة.

تلك المرأة التي رافقتها خلال ليالي التردد الطويلة، وشهدت ارتباكها وأسئلتها وصراعاتها الداخلية، كانت الآن على موعد مع لحظة مختلفة؛ لحظة التحول. كانت ربما تنظر إلى انعكاسها وكأنها تودع وجهًا عاشت معه نصف عمرها، وجهًا ارتبط بالنجاح والثقة والحضور، وتستعد لاستبداله بوجه آخر لا يعرفه أحد.

على الطاولة أمامها كانت الأدوات مصطفة بعناية: ألوان داكنة لتغيير ملامح الوجه، كحل كثيف يخفف من بريق العينين، بودرة باهتة تمنح البشرة مظهر التعب والإرهاق، وخطوط دقيقة رسمتها حول العينين والفم لتضيف إلى وجهها سنوات من الحرمان والانتظار.

لم تكن تريد أن تبدو امرأة تتخفى خلف ملامح مستعارة، وإنما امرأة تجد لها مكانًا حقيقيًا في المكان الذي ستجلس فيه؛ أن لا يكون وجودها عابرًا كظل مرّ من هنا، وإنما حضورًا ينتمي إلى الحكاية نفسها التي أرادت الاقتراب منها.

كانت تعرف أن المكياج لن يكون سوى طبقة أولى، وأن النقاب هو الحاجز الحقيقي الذي سيحمي هويتها. لكنها أرادت أن تكون مستعدة

لكل احتمال؛ للحظة قد تضطر فيها إلى كشف وجهها، للحظة قد ترفع فيها القماش عن ملامحها، فتجد أمام الآخرين وجهًا لا يشبه ريما الصحفية التي يعرفونها.

بدأت تعمل على وجهها بتركيز يشبه تركيز الفنان أمام لوحة لا يريد لأحد أن يراها.

كانت كل حركة محسوبة.

كل لمسة من الفرشاة كانت محاولة لإعادة كتابة ملامحها.

كل خط ترسمه كان ابتعادًا جديدًا عن صورتها القديمة.

لم تكن تغَيِّر ملامح وجهها فقط، وإنما كانت تحاول أن تمنح وجودًا كاملاً لامرأة أخرى؛ امرأة لا تحمل اسمها، ولا تاريخها، ولا شهاداتها، ولا تلك الطبقات التي تراكمت حولها حتى ظنت أنها هي. امرأة لا تملك سوى الحاضر؛ حاضر يُقاس ببطء الدقائق فوق الرصيف، بصوت العملات حين تسقط في الكوب، وبالوجوه التي تعبر قربها من غير أن تمنحها سوى نظرة عابرة.

وحين انتهت، بقيت واقفة أمام المرأة في صمت طويل.

ثم شعرت برجفة خفيفة تشبه الاكتشاف.

لم تكن المرأة التي تنظر إليها هي ريما التي تعرفها.

كان الوجه الجديد غريبًا عنها، ومع ذلك حمل شيئًا مألوفًا أربكها. كأنها لم تصنعه من الخارج، وإنما أخرجته من مكان بعيد في داخلها.

كان يحمل تعبًا لم تعشه، وحزنًا لم تختبره، وحكايات لم تسمع أصوات أصحابها. الخطوط التي رسمتها حول عينيها لم تبدُ مجرد آثار مصطنعة، وإنما بدت كأنها بقايا أعوام طويلة من الانتظار، ومن دموع ذابت قبل أن يراها أحد، ومن خيبات بقيت بلا شهود.

والظلال الداكنة تحت العينين بدت كأنها قادمة من ليالٍ لم تعرف فيها امرأة ما النوم، ومن أحلام انطفأت قبل أن تصل إلى الضوء.

أما البشرة الشاحبة التي غطتها بدرجات رمادية، فقد منحت وجهها هيئة من عاش طويلًا خارج دائرة الانتباه؛ بعيدًا عن العناية، وعن المساحات الصغيرة التي يحتاجها الإنسان كي يشعر أنه موجود في نظر الآخرين.

حتى شفاهها، التي رسمت عليها أثر الجفاف والإرهاق، بدت كأنها فقدت منذ زمن بعيد الذاكرة القديمة للابتسامة.

حدقت ريمًا في وجهها الجديد طويلًا.

وللحظة، لم تشعر أنها تنظر إلى نفسها، وإنما إلى امرأة أخرى تقف في الجهة المقابلة من المرأة، امرأة تنظر إليها كما لو أنها كانت تنتظر هذا اللقاء منذ زمن. لم تولد هذه المرأة من القماش والألوان وحدهما، وإنما من الأسئلة التي تراكمت داخل ريمًا خلال الأشهر الماضية، من الشكوك التي لم تجد طريقها إلى الكلام، ومن الرغبة في معرفة ما يبقى من الإنسان حين تُسحب منه العلامات التي يعرفه بها الآخرون.

كأنها كانت تقول لها:

«أنا هنا. سأخرج معك اليوم. لكن لا تحاولي أن تعيدي بي إلى حياتك القديمة، كما لا أستطيع أن أحمل حياتك بدلاً منك.»
ثم جاء دور النقاب.

حملته بين يديها لحظات طويلة قبل أن تضعه على وجهها. لم يكن مجرد قطعة قماش تحجب الملامح، وإنما كان عتبة بين عالمين؛ بين امرأة يعرفها الناس من خلال حضورها وصوتها واسمها، وامرأة ستصبح قريبة من الاختفاء، لا يربطها بالعالم سوى عينيها.
وحين وضعت، لم يبقَ ظاهراً منها سوى النظرة.
وكانت النظرة هي الاختبار الأصعب.

فالوجه يمكن تغييره، والملابس يمكن استبدالها، أما العينان فتحتفظان بشيء من صاحبها مهما حاول إخفاءه. فيهما الذاكرة والخوف والارتباك واليقين المتردد، وفيهما كل ما يتركه الإنسان خلف جدران الصمت.

كانت ربما تعرف أن عينيها قد تكشفانها قبل أي علامة أخرى.
لهذا أمضت الأيام السابقة تحاول أن تتعلم نظرة جديدة؛ نظرة لا تحمل فضول الصحفية، ولا دقة الباحثة، ولا ثقة المرأة التي اعتادت الوقوف أمام الآخرين من موقع من يرى ويفسر. كانت تبحث عن نظرة امرأة أنهكها الانتظار، امرأة لا تطلب من الحياة أكثر مما تمنحه لها، امرأة تعيش يومها كما يأتي، وتعرف أن بعض الآلام لا تغادر الإنسان، وإنما تتعلم الجلوس إلى جواره.

نظرت إلى نفسها في المرأة للمرة الأخيرة.

لم ترَ ربما الصحفية.

رأت امرأة لا تعرف اسمها، تقف عند باب عالم لم تطأه من قبل.

امرأة ستخرج بعد دقائق إلى الشارع، لا لتجمع مادة صحفية، ولا لتكتب تقريرًا، وإنما لتدخل تجربة لا تعرف إن كانت ستعيد تشكيلها، أم ستكشف لها أنها كانت تقرأ العالم طوال حياتها من بعيد.

وكانت النتيجة أكثر دهشة مما توقعت.

حين رأت انعكاسها في المرأة بكل تفاصيل التحول، تخيلت نفسها عابرة في الشارع، تصادف هذه المرأة جالسة على الرصيف. أدركت أنها ربما لن تبحث خلف الوجه عن قصة أخرى. سترها كما يراها الجميع: امرأة متسولة حقيقية.

وربما ستظن أن من الصعب العثور على شخص أكثر إقناعًا منها في هذا الدور؛ في انحناء الجسد، وفي طريقة إخفاء الوجه، وفي ذلك الصمت الثقيل الذي يحيط بمن فقدوا أشياء كثيرة، حتى صار الصمت أحيانًا آخر ما يملكونه.

لقد نجحت ربما في الوصول إلى ما كانت تبحث عنه: أن تصبح غير مرئية.

أن تصبح واحدة من أولئك الذين تمر بهم العيون دون أن تتوقف، والذين يراهم الناس ولا يرونهم في الحقيقة. واحدة من أولئك الذين

يعيشون في قلب المشهد اليومي للمدينة، لكنهم يبقون خارجه في الوقت نفسه؛ حاضرون بأجسادهم، غائبون بأسمائهم وقصصهم وذواتهم.

حتى لو صادفها أخوها سمير في الشارع، ذلك الرجل الذي يعمل مراقباً صحياً في البلدية، والذي يقضي ساعات طويلة في التجول بين الأسواق، يراقب المخالفات، ويتابع أحوال الباعة وأصحاب المحلات، ويرى المتسولين الذين يفترشون الأرصفة، فإنها كانت واثقة بأنه لن يكشف حقيقتها.

كان سمير يعرف أخته جيداً؛ يعرف ملامح وجهها، وطريقة حديثها، ونبرة صوتها، وحتى بعض عاداتها الصغيرة التي لا يلاحظها إلا من عاش معها سنوات طويلة. لكنه لم يكن يعرف هذه المرأة.

لم يكن يعرف المرأة المنحنية التي تجلس بصمت، والتي تمد يدها لتردد، والتي تخفض عينيها نحو الأرض وكأنها تخشى مواجهة العالم. لم يكن يعرف تلك المرأة التي لا تشبه الصورة المحفورة في ذاكرته عن أخته؛ الصحفية الأنيقة، الواثقة، التي تدخل قاعات المؤتمرات وتحمل دفتر ملاحظاتها وتناقش كبار المسؤولين.

كان سمير يمر بجانب أمثالها كل يوم، من غير أن يخطر له أن يبحث عن أخته بينهم. فقد أدركت ربما أن العقل لا يلتقط دائماً ما يقف أمامه، وإنما يعيد ترتيب العالم وفق الصور التي سبق أن صنعها. نحن نرى غالباً داخل الحدود التي رسمناها لأنفسنا، ونغفل عن الأشياء التي لا تجد مكاناً في توقعاتنا.

وفي هذا الزبي؁ كانت ريماء خارج كل الاحتمالات التي عرفها سمير. لم تكن حاضرة في ذاكرته؁ ولا في مخيلته؁ ولا في الخريطة الداخلية التي يرسم بها العالم من حوله.

وقفت أمام باب المنزل لحظات طويلة.

وضعت يدها على المقبض؁ ثم بقيت ساكنة كأنها تنتظر إشارة لا تأتي من الخارج. كان هناك عالمان يتواجهان في تلك اللحظة؛ عالم تعرف تفاصيله؁ عاشته بكل طمأنينته وأسئلته؁ وعالم آخر يقف خلف الباب؁ لا تملك عنه سوى يقين واحد: أنه ينتظرها.

كان الخوف حاضرًا.

ومع ذلك؁ كان هناك شيء آخر يتقدم نحوه؁ شعور غامض يشبه التحرر؁ أو يشبه الرغبة القديمة في استعادة جزء ظل مختبئًا خلف سنوات الراحة والنجاح والانتماء.

كانت تعرف أن أصعب ما في الطريق ليس المسافة؁ وإنما اللحظة التي تتحول فيها الفكرة إلى فعل. فما إن تعبر الباب حتى تصبح التجربة واقعًا؁ ويتحول السؤال الذي حملته طويلًا إلى اختبار لا يمكن تأجيله. كان بإمكانها أن تعود. أن تدخل غرفتها؁ وتنزع العباءة والنقاب؁ وتضع كل شيء في صندوق مغلق؁ ثم تقنع نفسها أن ما حدث لم يكن أكثر من فكرة عابرة.

غير أنها كانت تعرف أن بعض الأفكار؁ حين تصل إلى أعماق معينة؁ لا تعود أفكارًا يمكن التخلي عنها.

فالأشهر الماضية، بكل ما حملته من قلق وأرق وأسئلة معلقة، لم تكن تقودها إلا إلى هذه اللحظة.

لحظة المواجهة.

لحظة أن تغادر مكان الشاهد، وتدخل قلب المشهد.

أخذت نفساً عميقاً، ثم فتحت الباب.

خرجت إلى الضوء.

خرجت إلى الشارع.

خرجت إلى حياة لا تعرف فيها أحداً، ولا يعرفها فيها أحد. بين وجوه ستعبر قربها من غير أن تدرك أنها تمر بجانب صحفية معروفة، وامرأة تنتمي إلى عائلة لها اسمها، وإنسانة تبحث عن حقيقة لا تظهر في البيانات الرسمية، ولا في قاعات المؤتمرات، ولا في التقارير المنشورة. حقيقة لا تدرك إلا عندما تصبح جزءاً من التجربة.

في السابعة صباحاً من ذلك اليوم، كانت المدينة ما تزال تستيقظ على مهل. ضباب خفيف يلامس الأرصفة، والشمس تحاول اختراق طبقات الدخان الصاعد من السيارات والمصانع البعيدة. كانت الحياة تستعيد إيقاعها المعتاد؛ محال ترفع أبوابها، وحافلات تستعد للرحيل، ووجوه تحمل أثقال أيامها وتمضي نحو وجهاتها.

كانت ريماء، أو تلك المرأة التي تحاول أن تقترب من ريماء أخرى، تقف عند مجمع الباصات.

ذلك المكان الذي يشبه بوابة واسعة تدخل منها المدينة إلى ذاتها؛ حيث تتدفق الجموع كأنها نهر لا يتوقف، يحمل كل عابر فيه قصة لا يعرفها سواه، وطريقاً لا يراه أحد غيره.

كانت ترتدي عباءتها السوداء ونقابها، ولم يبقَ ظاهراً منها سوى عينيها.

وكانت تحاول أن تمنح عينيها هيئة أخرى؛ أن تجعلهما عيني امرأة لا يحمل الناس عنها ذاكرة جاهزة، ولا تنتظر غداً واضح الملامح. امرأة لا تملك سوى اللحظة التي تقف فيها، وتعرف أن يومها سيتشكل من أشياء تأتيها من الغرباء.

لقد خططت لكل تفصيل بدقة الصحفية التي اعتادت إعداد التقارير المهمة، غير أنها كانت تدرك أن هناك أشياء لا يمكن كتابتها قبل أن تُعاش.

درست حركة الناس.

راقبت أوقات الازدحام.

اختارت المكان والزمان بعناية.

وقع اختيارها على باص إربد - عمّان؛ ذلك الخط الذي يربط بين شمال البلاد ووسطها، بين هدوء المدن الصغيرة وصخب العاصمة، بين وجوه مختلفة تحمل معها حقائب مليئة بالأشياء، وقلوباً مليئة بالأحلام والهموم.

كان هذا الباص، في تصورها، المكان المثالي لبداية التجربة.

فهنا ستلتقي فئات متعددة: العمال والموظفون والطلاب والتجار، أناس يملكون الكثير، وآخرون يكافحون للحصول على القليل. هنا ستجد تنوعاً حقيقياً في ردود الأفعال؛ نظرات الشفقة، ونظرات التجاهل، وربما القسوة أو الرحمة.

كانت تبحث عن شيء لا تستطيع الوصول إليه من خلف مكتبها.
كانت تبحث عن لحظة إنسانية صافية.

عن إجابة واحدة من بين آلاف الوجوه التي ستمر أمامها.
عن الحقيقة التي ظلت تكتب عنها طويلاً، لكنها لم تلمسها إلا الآن.
صعدت ربما إلى الباص، وكانت خطواتها الأولى على الدرج أشبه بخطوة فوق حبل مشدود بين عالمين؛ عالمها القديم الذي تعرفه جيداً، وعالم جديد لم تطأه من قبل إلا بعيني المراقبة والبحث. للحظة، شعرت بأن عيني السائق استقرتا عليها، لكنه سرعان ما أعاد نظره إلى الطريق، وكأن وجود امرأة متسولة تصعد إلى الباص مشهد عادي لا يستحق التوقف، وكأنها مجرد جزء من تفاصيل يومية اعتاد عليها عشرات المرات.

شعرت ربما بثقل النقاب على وجهها، وثقل العباءة التي تغطي جسدها، لكنها شعرت بثقل أكبر من ذلك كله: ثقل الدور الذي اختارته، وثقل الهوية الجديدة التي كانت تحاول أن تدخلها بكل تفاصيلها. كانت تسير ببطء في الممر الضيق بين المقاعد، تمسك بالكوب البلاستيكي القديم في يدها، وتحاول أن تجعل خطواتها

طبيعية، غير مصطنعة، كأنها فعلت ذلك مئات المرات من قبل، كأن هذا الرصيف وهذا الباص هما جزء من حياتها منذ سنوات، لا أنها كانت قبل ساعات فقط صحفية معروفة تحمل دفتر ملاحظاتها وتجلس في الصفوف الأمامية للفعاليات الرسمية.

ثم بدأت تتكلم.

بصوت خافت في البداية، متردد كأن الكلمات تخرج للمرة الأولى من فمها، ثم أخذ صوتها يزداد ثباتًا مع تكرارها:

«من مال الله... من مال الله... من مال الله.»

كانت تسمع صوتها كما لو أنه يأتي من امرأة أخرى تقف في مكان بعيد عنها. لم تكن هذه الكلمات مألوفة في فمها؛ كلمات التقطتها طوال سنوات من وجوه كانت تمر أمامها كل صباح، كلمات عبرت بها كثيرًا من غير أن تتوقف عند وزنها الحقيقي. أما الآن، وهي تنطقها، فقد شعرت أنها تحمل تاريخًا كاملاً من الانتظار.

لم تعد مجرد عبارة تُقال لطلب المال.

صارت اعترافًا هادئًا بالحاجة.

إشارة صامتة إلى أن الإنسان، مهما امتلك من قوة أو مكانة، يبقى في لحظة ما محتاجًا إلى يدٍ تمتد نحوه. كان في تلك الكلمات شيء من الانكسار، وشيء من الرجاء، وشيء من التسليم، ومع ذلك بقي فيها خيط صغير من الأمل؛ ذلك الخيط الذي يجعل الإنسان يواصل الوقوف حين تضيق به المسافات.

كانت عبارة «من مال الله» تختصر علاقة معقدة بين الفقر والكرامة، بين اليد التي تمتد طلباً، واليد التي تختار أن تمنح، بين من يقف في جهة الحاجة، ومن يقف في الجهة الأخرى حاملاً قدرة الاختيار. بدأ الركاب ينظرون إليها بطرق مختلفة.

بعضهم اختار ألا يراها. انشغل بهاتفه، أو أدار وجهه نحو النافذة، كأن غياب النظر يمكن أن يؤجل حضور الحقيقة. وكأن الإنسان يستطيع أن يخفف ثقل المسؤولية بمجرد أن يحول عينيه إلى مكان آخر.

وبعضهم أدخل يده في جيبه، وأخرج قطعة نقدية أو ورقة صغيرة، ثم وضعها في الكوب من غير أن يرفع عينيه إليها. كان العطاء في تلك اللحظات سريعاً، قريباً من العادة، كأنه محاولة لإنهاء موقف يوقظ إحساساً بالحرج أكثر مما يفتح باباً للتواصل.

أما القلة التي بقيت نظراتها معلقة بها لوقت أطول، فقد حملت وجوهاً متعددة. بعضها كان يبحث بدافع الفضول، وبعضها يحمل تعاطفاً صامتاً، وبعضها يختبئ خلف حكم لا يُقال. كانت ربما تشعر بكل نظرة تمر عليها، كأنها تخترق الطبقات التي صنعتها حول نفسها. وللمرة الأولى، لم تكن تقرأ عيون الآخرين من موقع المراقب الذي يحلل التفاصيل، وإنما من موقع من أصبح هو التفصيل الذي يُقرأ.

ومع كل خطوة كانت تخطوها في ممر الحافلة، كانت تكتشف جانباً جديداً من عالم ظنت أنها تعرفه.

كانت تكتشف أن المكان وحده قادر على تغيير معنى الأشياء.

فالشخص الذي يجلس في مقعد مريح لا يرى العالم بالطريقة نفسها التي يراه بها من يقف في الممر ممسكًا بكوب بلاستيكي. ومن اعتاد أن يختار وجهته لا يعرف تمامًا قلق من ينتظر ما يأتيه من يدٍ أخرى. بدأت تلتقط تفاصيل لم تكن تراها من قبل.

الرجل الذي يرتدي بدلة أنيقة لا يحمل بالضرورة قلبًا أكثر اتساعًا من العامل الذي ترك التعب علاماته على يديه. والمرأة التي تحمل حقيبة ثمينة لا تملك بالضرورة رحمة أكبر من امرأة بسيطة لا تحمل سوى القليل.

أدركت أن العطاء لا يُقاس دائمًا بما يخرج من الجيب، وإنما بما يتحرك في الداخل.

فالكرم ليس وفرة المال وحدها، وإنما وفرة الإحساس بالآخر. والبخل ليس عجزًا عن المنح دائمًا، وإنما قد يكون عجزًا عن رؤية الإنسان الذي يقف أمامنا.

كانت تتعلم أن الفقر لا يعيش في غياب المال فقط. أحيانًا يسكن في مساحات أعمق؛ في غياب الاهتمام، وفي غياب الاعتراف، وفي اللحظة التي يتحول فيها إنسان كامل إلى مجرد صورة عابرة في طريق الآخرين. ثم جاءت لحظة لم تكن تنتظرها.

في أحد المقاعد، رأت طفلة صغيرة تحديقها بعينين واسعتين. لم تحمل نظرة الطفلة خوفًا، ولا شفقة، ولا ذلك الحكم السريع الذي

يسبق المعرفة. كانت نظرة صافية، فضولاً لم تمسه بعد تعقيدات العالم الذي يصنعه الكبار.

بقيت الطفلة تنظر إليها لحظات، ثم فتحت يدها الصغيرة.
كانت تحمل قطعة حلوى.

مدتها نحو ريماء من غير كلمة واحدة.

كانت الحركة بسيطة إلى حد أنها بدت عابرة، ومع ذلك وصلت إلى مكان عميق في داخلها. كأن الطفلة قالت لها بصمت: «أنتِ تحتاجين شيئاً، وأنا أملك شيئاً يمكنني أن أمنحك إياه.»

شعرت ريماء بدمعة تقترب من عينيها، لكنها أبقتها خلف جدار الصمت. لم تستطع الطفلة أن ترى ابتسامتها خلف النقاب، غير أنها أحست بها بطريقة أخرى. وضعت ريماء يدها على صدرها بحركة صغيرة، محاولة أن تشكرها بلغة لا تحتاج إلى صوت.

في تلك اللحظة، فهمت شيئاً لم يكن حاضراً في حساباتها.

لم تكن تقف هناك لتمنح الآخرين فرصة العطاء.

كانت هي التي تتلقى.

جاءت تظن أنها ستختبر الفقر، ثم بدأت تدرك أنها تختبر شيئاً أكثر اتساعاً: الإنسان نفسه.

فالإنسان لا يكشف جوهره بما يحتفظ به، وإنما بما يختار أن يقدمه حين لا يكون لديه الكثير.

والعطاء الحقيقي لا يأتي دائماً في صورة نقود تسقط في كوب. أحياناً يولد من قطعة حلوى في يد طفلة، أو من نظرة ترى الآخر كما هو، أو من لحظة قصيرة يعترف فيها إنسان بوجود إنسان آخر.

وفي ذلك الباص، بين هدير المحرك وحركة الركاب وضجيج الطريق، شعرت ربما أنها اقتربت للمرة الأولى من الحقيقة التي كانت تطاردها منذ أشهر؛ حقيقة لا تختبئ في التقارير، ولا في المؤتمرات، ولا في الأرقام، وإنما تظهر في تلك اللحظات الصغيرة التي يتقابل فيها وجهان، ويتذكر كل منهما أن الآخر يشبهه أكثر مما يظن.

غير أن الطريق لم يكن مملوءاً بالرحمة وحدها.

فبينما كانت تعبر ممر الباص الضيق، اصطدمت بوجه آخر للحياة؛ وجه أكثر قسوة، وأكثر برودة. مرّت بجانب رجل تبعها بنظرة مثقلة بالضيق والاحتقار، ثم قال بصوت مرتفع، كأنه لا يخاطبها وحدها، وإنما يعلن حكمه أمام الجميع:

«هؤلاء المتسولون يزدادون كل يوم. لماذا لا يعملون مثلنا؟»

استقرت الكلمات في داخلها كأنها وُجِعت إليها مباشرة.

لم تكن مجرد عبارة عابرة، وإنما حكم كامل على حياة إنسان لم يعرفه صاحبها. شعرت كأن الرجل لم ير امرأة تقف أمامه، وإنما رأى صورة جاهزة وضعها في مكانها قبل أن يمنحها فرصة الظهور؛ شخصاً كسولاً اختار الطريق الأسهل، شخصاً لا يريد العمل، ولا يحاول تغيير واقعه.

اقتربت الكلمات من شفيتها.

كادت أن ترد.

كادت أن ترفع رأسها وتقول له:

«أنا أعمل. أنا صحفية. أنا لست كما تظن. أنا هنا لأفهم، لا لأطلب.

أنا هنا لأتعلم عن حياة لم أعرفها من قبل.»

كانت تريد أن تدافع عن نفسها وعن أولئك الذين لا يملكون فرصة للدفاع عن ذواتهم. كانت تريد أن تقول له إن الإنسان قد يفقد عمله، أو تصيبه علة تغلق أمامه أبواب الرزق، أو يولد في مكان لا يمنحه بداية متساوية، أو يجد نفسه في مواجهة ظروف تتجاوز قدرته على الاحتمال. غير أنها توقفت.

تذكرت أنها لم تعد ريمًا الصحفية في تلك اللحظة.

تذكرت المرأة التي اختارت أن تكونها.

فالمسولة لا تدخل في نقاش طويل، ولا تسرد حياتها لتثبت أنها جديرة بالنظر. في أعين كثيرين، هي صورة عابرة تظهر للحظات، ثم يختارون لها معنى قبل أن يعرفوا حكايتها.

احتفظت بكلماتها.

خفضت رأسها.

واصلت السير.

ومع ذلك، بقيت العبارة تسير معها.

استقرت في مكان عميق داخلها، كأثر صغير لا يراه أحد، لكنه يعود في كل مرة تلمسه الذاكرة. عندها أدركت أن الفقر لا يعيش في غياب المال فقط. أحياناً يظهر في غياب الاحترام، وفي ضيق الفرص، وفي تلك اللحظة التي يُحرم فيها الإنسان من أن يُرى قبل أن يُحكم عليه. ومع مرور الوقت داخل الباص، بدأ شيء آخر يتغير فيها. لم تعد تشعر بأنها تمثل دوراً.

بدأ الدور يتخلّى عن حدوده ويصبح حياة.

كانت المسافة بين ريما الصحفية والمرأة التي ترتدي العباءة السوداء وتردد «من مال الله» تضيق شيئاً فشيئاً. لم تعد العبارة مجرد كلمات التقطتها من وجوه كانت تراها من بعيد، وإنما أصبحت تحمل معنى آخر؛ معنى الانتظار، والاعتماد، والاعتراف بأن الإنسان، مهما امتلك من قوة أو نجاح، يبقى في حاجة إلى الآخرين بطريقة لا يعترف بها غالباً.

كانت تكتشف أن الفقر لا يمكن اختزاله في رقم أو إحصائية. إنه تجربة كاملة يعيش فيها الإنسان مع الاحتمال المفتوح، ومع انتظار ما قد يأتي، ومع فقدان السيطرة على تفاصيل كان يظن يوماً أنها مضمونة. لقد عاشت سنواتها وهي تربط النجاح بالقدرة على السيطرة؛ بالتخطيط، واتخاذ القرار، وصناعة الطريق قبل الوصول إليه. أما الآن، فكانت تقترب من وجه آخر للحياة؛ وجه يطلب فيه الإنسان، ثم ينتظر، ويترك جزءاً من مصيره في يد شخص لا يعرفه.

وللمرة الأولى، بدأت ترى الحاجة الإنسانية من زاوية مختلفة.
لم تعد الحاجة علامة نقصٍ تخص بعض الناس وحدهم، وإنما
خيطةً خفيّةً يصل الجميع. فكل إنسان، مهما امتلك من مكانة أو مال،
يحمل في داخله حاجات لا يستطيع إشباعها بنفسه؛ يحتاج إلى الحب،
وإلى الاعتراف، وإلى حضور الآخرين.

وربما لا يكمن الاختلاف إلا في شكل اليد التي تمتد؛ فهناك من
يمدها طلباً لقطعة نقدية، وهناك من يمدها بحثاً عن أشياء أخرى لا تقل
أهمية، أشياء لا تُرى بسهولة، ولا توضع في كوب.

وحين وصل الباص إلى محطته الأخيرة في عمّان، نزلت ريما،
أو المرأة التي كانت تحاول أن تكون ريما، ووقفت للحظات على
الرصيف.

كان جسدها متعباً.

وقدماها تؤلمانها.

وروحها تحمل ثقل يوم كامل من المشاعر المتناقضة.

لكن خلف هذا التعب كان هناك شعور آخر؛ شعور بأنها عبرت عتبة
مهمة في رحلتها.

كانت تعرف أن هذا ليس سوى اليوم الأول، وأن أمامها تسعة
وعشرين يوماً أخرى، وأن الطريق ما زال طويلاً، وأن هناك الكثير مما
ستراه وتسمعه وتتعلمه.

لكنها كانت تعرف أيضاً أن شيئاً ما تغير داخلها.

لقد رأيت ما لا يمكن رؤيته من خلف مكتب.

وعاشت ما لا يمكن فهمه من خلال التقارير.

ولمست عالماً كاملاً كان موجوداً دائماً أمام عينيها، لكنها لم تدخله إلا الآن؛ عالماً يعيش في الشوارع، وفي الباصات، وعلى الأرصفة، عالماً يحتاج إلى أكثر من التغطية الصحفية، يحتاج إلى الإنصات، وإلى الاقتراب، وإلى رؤية الإنسان قبل القضية.

كانت ربما تواصل السير في ممر الباص، تحمل الكيس البلاستيكي القديم، وتردد بصوت منخفض:

«من مال الله... من مال الله... من مال الله.»

كانت تشعر بكل عين تتجه نحوها، وبكل يد تمتد إلى الجيب، وبكل قطعة نقدية تسقط في الكيس كأنها تحمل قصة صاحبها. كانت تلاحظ الفروق الدقيقة بين الناس.

هناك من يعطي بسرعة، كأنه يريد إنهاء الموقف قبل أن يشعر بأي شيء.

وهناك من يتردد، يفتش في جيبه، ويحساب ما يستطيع أن يقدمه. وهناك من يعطي بنظرة شفقة، وكأن المال هو الطريقة الوحيدة التي يعرف بها التعبير عن التعاطف.

وهناك من يعطي بابتسامة صغيرة، ابتسامة تقول أكثر مما تقوله النقود:

«أنا أراك.»

كانت تلك الابتسامة هي الأكثر تأثيراً فيها.

لأنها لم تكن تمنحها مالا فقط؛ كانت تمنحها اعترافاً بوجودها.

ومع كل عملة كانت تسقط في الكيس، كان شعور غريب يتشكل في داخلها. لم يكن خجلاً خالصاً، ولا رضا كاملاً، وإنما مزيجاً مضطرباً من إحساسين يتنازعانها.

كانت تشعر بالارتباك لأنها تمد يدها.

وفي الوقت نفسه، كان هناك شعور خفي بالاقتراب من شيء طالما بحثت عنه؛ أن تدخل هذا العالم من داخله، لا من خلف شاشة أو ورقة، وأن يراها الآخرون كما يرون كل شخص يجلس على الرصيف ويتنظر.

كان داخلها منقسماً بين صوتين.

صوت ربما الصحفية؛ المرأة التي اعتادت أن تحلل الظواهر، وتبحث عن أسباب الفقر، وتضع حياة الآخرين داخل تقارير وأسئلة. وصوت آخر بدأ يتشكل ببطء؛ صوت المرأة التي تجلس الآن على الرصيف، وتنتظر ما يأتيها من الغرباء.

وفي تلك اللحظة تحديداً، كان صوت المتسولة أكثر قرباً من صوت الصحفية.

كانت كل عملة تسقط في الكيس تبدو كأنها رسالة قادمة من عالم مختلف؛ عالم لا تحكمه الجداول والأرقام وحدها، وإنما تلك العلاقة الإنسانية البسيطة بين يد تمتد، ويد تختار أن تمنح.

وبدأت ربما تلاحظ أمرًا لم يكن في حسابها.

كانت العملات التي يضعها الركاب، رغم صغرها في نظر كثيرين، تتجمع بسرعة مذهشة. كان الكيس يمتلئ شيئًا فشيئًا بتلك القطع المعدنية التي يسميها الناس «الفراطة»، تلك القطع التي تفقد معناها حين تكون منفردة، ثم تستعيده حين تجتمع.

نظرت إليها كما لو أنها تنظر إلى شظايا صغيرة من حياة أصحابها. كل قطعة لم تكن معدنًا باردًا فقط، وإنما لحظة إنسانية قصيرة؛ قرارًا اتخذته شخص ما بأن يقتطع جزءًا من ماله، مهما كان بسيطًا، ليترك أثرًا عند إنسان آخر.

كانت تشعر أن كل عملة تحمل حكاية لا تُروى. حكاية عن علاقة الإنسان بما يملك، وعن نظراته إلى من يحتاج، وعن المسافة التي تفصل بين شخص يعيش داخل عالمه الخاص، وشخص يمد يده طالبًا أن يُرى.

تلك القطع الصغيرة التي قد تبدو بلا قيمة، كانت تكشف شيئًا أعمق من قيمتها المادية. كانت تشير إلى استعداد الإنسان لأن يشارك، حتى حين لا تكون لديه وفرة، وإلى اللحظة التي يتراجع فيها صوت الانشغال بالذات قليلًا، كي يظهر وجه آخر أكثر إنسانية.

ومع كل عملة كانت تسقط في الكيس، كانت ربما تشعر أنها لا تتلقى نقودًا فقط.

كانت تتلقى شيئًا من أصحابها؛ أثرًا من لحظاتهم، ومن اختياراتهم، ومن الطريقة التي أرادوا بها أن يكونوا في هذا العالم.

بدأت ترى في العطاء انتصارًا صغيرًا على ذلك الصوت الداخلي الذي يهمس دائمًا: «ليس لدي ما يكفي، أنا أيضًا أحتاج، لماذا أعطي؟» وأدركت أن قيمة العطاء لا ترتبط بحجم ما يُمنح، وإنما بالمساحة التي يتركها الإنسان في داخله للآخر.

وعندما وصلت إلى الصف الخامس من الباص، توقفت أمام رجل بدا في الخمسين من عمره.

كان يرتدي ملابس بسيطة، ويحمل حقيبة يدوية قديمة. غير أن ما جذب انتباهها لم يكن مظهره، وإنما نظراته. كانت نظرة مختلفة.

لم تحمل شفقة، ولا فضولًا، ولا حكمًا جاهزًا. كانت نظرة شخص يرى ما وراء القناع، كأنه يقول لها بصمت: «أنا أعرف هذا المكان. أعرف هذا الشعور.»

أدخل الرجل يده في جيبه، وأخرج محفظة جلدية قديمة. فتحها ببطء، ثم أخذ يبحث فيها بعناية، كما لو أنه يختار شيئًا له معنى خاص. أخرج قطعة نقدية ووضعها في الكيس.

لم تكن أكبر العملات، ولم تكن أصغرها. ثم رفع عينيه إليها وقال بصوت هادئ:

«الله يعينك، الله يرزقك من واسع فضله.»

كانت الكلمات بسيطة، غير أن أثرها تجاوز معناها المباشر. كان

السر في النبوة، في الدفء الذي حملته، في ذلك الإحساس بأن الرجل لم يرَ أمامه صورة عابرة، وإنما إنسانة تقف في لحظة من هشاشتها.

شعرت ربما أن تلك الكلمات كانت أثمن من كل النقود التي جمعتها حتى ذلك الوقت.

لأنها منحتها شيئاً لم تكن تعرف أنها تبحث عنه.

الاعتراف.

للمرة الأولى، لم تشعر أنها مجرد حالة اجتماعية تُدرس، أو صورة تُلتقط، أو قصة تُكتب. شعرت أنها إنسانة رآها إنسان آخر.

وفي عالم يمضي فيه الناس غالباً مسرعين، عابرين للوجوه من غير أن يتوقفوا عندها، بدت تلك اللحظة القصيرة كجسر صغير بين روحين غريبتين؛ جسر لم يُبنَ إلا بكلمات قليلة ونظرة صادقة.

ومع استمرارها في المرور بين الركاب، بدأت ربما تدرك أن النقود لم تكن جوهر التجربة، وأن الكيس الذي يمتلئ بقطع الفراطة لم يكن الغاية التي جاءت من أجلها. كانت القيمة تختبئ في تلك اللحظات العابرة التي يتوقف فيها الزمن للحظة قصيرة؛ حين تلتقي عين بعين، ويد بيد، وإنسان بإنسان.

كانت تكتشف أن هناك أشياء لا تستطيع الصحافة الإمساك بها، ولا تستطيع التقارير احتواءها، لأنها تولد في المسافة الدقيقة بين فعل العطاء وقبول العطاء؛ في تلك المنطقة الصامتة التي لا يراها أحد، حيث يحدث شيء يتجاوز قيمة المال نفسه.

بدأت تفهم أن العطاء ليس حركة مادية فحسب، وإنما موقف داخلي تجاه وجود الآخر. إنه اعتراف خفي بأن البشر ليسوا جزراً منفصلة، وأن هشاشة الإنسان لا تنتمي إلى الفقراء وحدهم، وإنما تسكن التجربة الإنسانية كلها. فكل إنسان، بطريقة ما، يمد يده إلى غيره؛ يطلب حباً، أو اهتماماً، أو دعماً، أو مجرد إشارة تقول له: «أنت موجود».

وعندما وصلت إلى آخر الصفوف، ولاحظت أن الكيس قد امتلأ تقريباً، لم تشعر بما كانت تتوقعه.

لم يأت شعور الانتصار.

ولم يأت ذلك الرضا الذي ظنت أنها ستشعر به بعد نجاحها في أداء الدور.

جاء شعور آخر أكثر عمقاً؛ دهشة طويلة أمام عالم عاشته سنوات ولم تره حقاً، أمام وجوه مرت بقربها آلاف المرات من غير أن تعرف الحكايات المختبئة خلفها، وأمام نفسها التي ظنت أنها تفهم الحياة لأنها تكتب عنها، ثم اكتشفت أن الكتابة عن الأشياء لا تعني بالضرورة الاقتراب من حقيقتها.

كانت العملات المتجمعة في الكيس تشبه مرآة صغيرة تعكس وجوه البشر المتعددة.

هناك من أعطى بدافع الرحمة، ومن أعطى لأن العطاء أصبح عادة، ومن أعطى هرباً من شعور داخلي بالذنب، ومن أعطى لأنه رأى أمامه إنساناً يحتاج إلى يد تمتد نحوه.

كل قطعة نقدية كانت تفتح نافذة على عالم شخص لا تعرفه،
وتذكرها بأن الإنسان أعقد من أي تصنيف، وأن الحياة لا تختصرها
الأرقام ولا الجداول.

وعندما انتهت الرحلة ونزلت من الباص، وقفت لحظة على
الرصيف.

كانت تحمل الكيس في يدها، وتشعر بثقله المادي وثقله الآخر
الذي لا يُرى.

كانت تعرف أنها جمعت مبلغًا أكبر مما توقعت، غير أنها كانت
تعرف أيضًا أن ما حملته معها لم يكن مألًا فقط.
كان شيئًا آخر.

كان مجموعة من اللقاءات الصغيرة، والوجوه العابرة، والنظرات
الصامتة، والكلمات التي بقيت معلقة في داخلها بعد أن اختفت أصوات
أصحابها.

كان الكيس الممتلئ بالفراطة يحمل حكايات لم تُكتب، وأرواحًا
لم تُر، وأسئلة لم تصل بعد إلى نهاياتها.
وكانت ربما تدرك أن هذا لم يكن سوى اليوم الأول.

فالأيام القادمة ستقودها إلى وجوه أخرى، وأماكن أخرى، وتجارب
جديدة. ستعود غدًا إلى باص آخر، وتلتقي بركاب آخرين، وستسقط
عملات جديدة في الكيس، غير أن كل قطعة ستحمل معها رسالة
مختلفة من عالم لا يظهر في نشرات الأخبار، ولا في التقارير الصحفية.

عالم يعيش تحت سطح الحياة اليومية، ممتلئ بالحكايات، يحتاج فقط إلى شخص يتوقف قليلاً، وينظر، ويصغي، ويفهم أن بعض القصص لا تُكتب بالحبر، وإنما تُكتب باللحظات التي يعيشها إنسان مع إنسان آخر.

كانت ربما تقف على رصيف محطة الباصات، تمسك بالكيس البلاستيكي الذي بدا كأنه يئن تحت وزن ما بداخله. كان الكيس الرقيق قد تمدد بفعل العملات التي تراكمت فيه، حتى خُيلَ إليها أنه قد لا يحتمل أكثر.

نظرت إليه بدهشة، كأنها تراه للمرة الأولى.

كيف تحولت تلك القطع الصغيرة التي سقطت فيه واحدة تلو الأخرى إلى هذا الثقل الحقيقي الذي تشعر به الآن في يدها؟ كانت تعرف أن الركاب أعطوها نقوداً، لكنها لم تتوقع أن تتحول تلك «الفراطة» التي تبدو بلا معنى حين تكون منفردة إلى حمل واضح حين تجتمع.

لقد اكتشفت أن الأشياء الصغيرة، حين تتراكم، تصنع قوة لا يمكن تجاهلها؛ كما تتراكم لحظات البشر وكلماتهم ونظراتهم لتصنع في النهاية تجربة كاملة لا يمكن اختزالها في موقف واحد.

كان الكيس أثقل مما توقعت، غير أن ثقله لم يكن من العملات وحدها.

كان يحمل أشياء أخرى لا ترى.

كان يحمل قصص الأشخاص الذين مدوا أيديهم إلى جيوبهم،
والدوافع التي حركتهم، والمشاعر التي رافقت تلك اللحظات القصيرة.
بعضهم أعطى بدافع الرحمة، وبعضهم بدافع العادة، وبعضهم ربما أراد
فقط أن يتجاوز إحساسًا داخليًا بالحرج، غير أن كل قطعة كانت تحمل
أثر إنسان مرّ بها وترك شيئًا من حضوره.

لم تصدق ربما ما حدث.

كانت تقف وسط ضجيج المحطة وحركة المسافرين، تنظر إلى
الكيس كما لو أنها أمام مفاجأة صغيرة لم تدخل في حساباتها.
لقد خططت لكل تفاصيل تجربتها: الملابس، والنقاب، والمكان،
وطريقة الحديث، وحتى نظراتها.

غير أنها لم تخطط لهذا النجاح السريع.

ولم تتوقع أن تجد نفسها، بعد ساعة واحدة فقط، أمام مشكلة
جديدة تمامًا:

كيف تخفي هذا النجاح؟

كان عليها أن تتصرف بسرعة.

فالكيس البلاستيكي القديم لم يُصمم ليحمل هذا القدر من
العملات، واحتمال تمزقه كان يزداد مع كل لحظة. تخيلت المشهد
إذا سقطت النقود على الأرض؛ عملات تتدحرج بين أقدام الناس،
وركاب يلتفون حولها، وأسئلة تتكاثر، وعيون تبحث عن تفسير.

لم يكن خوفها من سقوط النقود وحده.

كان خوفها من سقوط القناع الذي صنعته بعناية.

احتاجت إلى مكان قريب تستبدل فيه العملات المعدنية بأوراق نقدية؛ مكان يمنحها فرصة لحمل المال بسهولة أكبر، ومواصلة تجربتها دون أن تلفت الانتباه.

عندها تذكرت البقالة الصغيرة الواقعة في زاوية الشارع، ذلك المحل القديم الذي لمحتة أثناء تجوالها في المنطقة. كان يديره رجل مسن بدا لها هادئًا وودودًا، وربما يكون المكان الأنسب لحل المشكلة. غير أن الفكرة لم تكن مريحة تمامًا.

فدخول البقالة يعني مواجهة شخص جديد. وربما يعني حديثًا، أو كشفًا لجزء من وجهها، أو السماح لصوتها الحقيقي بأن يخرج إلى العالم.

كانت تخشى تلك التفاصيل الصغيرة التي تبدو عادية للآخرين، بينما تحمل بالنسبة إليها خطرًا كبيرًا. فكلمة واحدة، أو حركة بسيطة، أو نظرة عابرة، قد تصبح خيطًا يقود إلى الحقيقة. ومع ذلك، لم يكن أمامها خيار آخر.

كان الكيس يزداد ثقلًا، وكأن التجربة نفسها تدفعها نحو خطوة جديدة.

بدأت تدرك أن فهم حياة المتسولين لا يتعلق فقط بالجلوس على الرصيف ومد اليد، وإنما يرتبط أيضًا بتلك التفاصيل اليومية التي لا

يراها أحد: أين يذهبون بما يجمعون؟ كيف يحافظون عليه؟ وكيف يواجهون عالمًا يحملون فيه عبئًا ماديًا ونفسيًا في الوقت نفسه؟

اتجهت نحو البقالة بخطوات أسرع مما أردت. كانت ترغب في إنهاء الأمر قبل أن يلتفت إليها أحد، قبل أن يجد القلق طريقه الكامل إلى داخلها. أحست أن كل شيء حولها يراقبها؛ عيون خلف زجاج المحال، ووجوه عابرة في الشارع، وأصوات متداخلة لا تعرف مصدرها.

ومع ذلك، واصلت السير.

كانت تذكر نفسها بأن هذه اللحظات جزء من الرحلة، وأن الاقتراب من حياة الآخرين لا يعني مشاهدة المشهد من بعيد، وإنما الدخول في تفاصيله كلها؛ حتى تلك التفاصيل الصغيرة التي تحمل شيئًا من الحرج والارتباك.

دخلت البقالة، فاستقبلتها رائحة مختلفة عن رائحة الشارع. رائحة خبز طازج، وقهوة مطحونة، ومواد غذائية تراكمت على الرفوف، ورائحة مكان قديم احتفظ بآثار أعوام طويلة من مرور الناس.

كان المحل صغيرًا، غير أنه بدا كأنه عالم قائم بذاته؛ عالم له زمنه الخاص، بعيدًا عن سرعة الطريق وضجيج المدينة.

كان صاحب البقالة رجلًا مسنًا يقف خلف المنضدة.

ارتدى مريلة بيضاء تحمل آثار العمل، ونظارات سمكة استقرت على وجهه، وعينين اكتسبتا حدة خاصة من سنوات طويلة قضاها في

مراقبة الوجوه والتعامل مع الناس. نظر إليها باهتمام. فقد بدا له مشهد امرأة منقبة تحمل كيسًا ممتلئًا بالعملات المعدنية أمرًا غير معتاد. ابتسم ابتسامة خفيفة وقال بصوت دافئ، تختلط فيه الألفة بحذر أصحاب الخبرة:

«أهلاً بك، كيف يمكنني مساعدتك؟»

توقفت ربما لحظة.

كانت تبحث عن صيغة لا تفتح أبوابًا إضافية، عن كلمات تبدو طبيعية، عن طريقة تخفي وراء بساطتها كل ما لا تريد قوله. ثم قالت بصوت منخفض حاولت أن تمنحه نبرة مختلفة عن صوتها المعتاد:

«أريد أن أستبدل هذه النقود المعدنية بنقود ورقية، من فضلك.»

مدت يدها بالكيس ووضعت على المنضدة.

وما إن لامس الكيس سطح الخشب حتى انطلقت العملات المعدنية بصوت رنان. بدا الصوت في تلك اللحظة أكبر من مجرد اصطدام قطع معدنية ببعضها. كأنه كان يعلن عن وجودها، وعن الطريق الذي قطعته، وعن السر الذي تحمله بين يديها.

نظر صاحب البقالة إلى الكيس طويلاً، ثم رفع عينيه إليها. حاول أن يقرأ ما وراء النقاب، وما وراء تلك العينين اللتين تحاولان أن تبدوا بلا ملامح، بلا ماضي، بلا اسم.

كان يعرف، بحكم سنواته الطويلة مع الناس، أن خلف كل وجه قصة، وأن بعض القصص تختار الصمت مكاناً لها.

قال وهو ينظر إلى العملات المتراكمة:

«هذا مبلغ كبير... من أين لك كل هذه النقود؟»

لم تحمل كلماته اتهامًا.

كان فيها فضول هادئ؛ فضول رجل رأى كثيرًا من وجوه الحياة داخل محل صغير على طرف المدينة. رجل يعرف أن الناس لا يدخلون محاله بحثًا عن حاجاتهم اليومية فقط، وإنما يحملون معهم أحيانًا أسرارًا لا يضعونها على الطاولة.

شعرت ريما بوخزة خوف.

للحظة، بدا لها أن السؤال لم يتجه نحو النقود، وإنما نحوها هي؛ نحو المرأة المختبئة خلف العباءة والنقاب. شعرت أن الرجل اقترب من مساحة لا تريد لأحد أن يصل إليها.

كان عليها أن تختار.

أن تكذب.

أو أن تعترف.

أو أن تترك جزءًا من الحقيقة بعيدًا عن الضوء.

ولم يكن أي طريق منها سهلاً.

اختارت الطريق الذي تعلمته منذ بدأت هذه الرحلة؛ أن تمنح جزءًا من الحقيقة، وتترك الجزء الآخر في الظل.

قالت بصوت خافت:

«هذا من فضل الناس... جمعته من الباصات. الناس طيبون.»

كانت كلماتها بسيطة، ولم تكن كاذبة.

فهي قالت الحقيقة، وإن لم تقلها كاملة.

نعم، الناس أعطوها.

ونعم، جمعت هذه النقود من الباصات.

غير أن ما حدث لم يكن مجرد جمع مال، وإنما كان بحثاً عن معنى يختبئ خلف المال.

ابتسم الرجل ابتسامة خفيفة وقال:

«الناس طيبون فعلاً... لكنهم مشغولون أيضاً، وكل واحد يحمل همومه. أنتِ محظوظة لأنكِ صادفتِ من أعطاك.»

كانت كلماته تشبه حكمة بسيطة خرجت من سنوات طويلة خلف هذه المنضدة الصغيرة. سنوات رأى فيها من يعطي ومن يمتنع، من يملك الكثير ولا يشارك، ومن لا يملك إلا القليل ويجد طريقاً لمنح جزء منه.

مد يده وبدأ يعد النقود.

تحركت أصابعه الخشنة بين العملات المعدنية، وارتفعت أصواتها المتتابة فوق سطح المنضدة الخشبية. كان لكل قطعة صوتها الخاص، كأنها تحمل أثر اليد التي أخرجتها من الجيب، واللحظة التي اختار فيها صاحبها أن يمنحها.

طال العد.

وطال معه انتظار ريما.

كانت واقفة بصمت، تشعر أن كل ثانية تحمل احتمالاً جديداً. ربما يدخل شخص يعرفها، ربما يسمع أحدهم صوتها، ربما يلتقط أحدهم في عينيها شيئاً لا يشبه امرأة اعتادت الجلوس على الأرضية.

كان الزمن يبدو أثقل من المعتاد.

وكان الانتظار نفسه جزءاً من التجربة.

حاولت أن تهدئ نفسها. ذكرت ذاتها بأن هذا القلق ليس غريباً على حياة من اختاروا هذا الطريق. فالمتسول لا ينتظر المال فقط، وإنما ينتظر أن تمر اللحظة بأمان، وأن يعبر اليوم من غير أن يصطدم بحكم قاسٍ أو ظرف أقسى.

الانتظار جزء من حياتهم.

كما أن عدم اليقين جزء من أيامهم.

وبينما كان الرجل منشغلاً بالعد، أخذت ريما تتأمل المكان.

كانت البقالة صغيرة، لكنها ممتلئة بتفاصيل لا تراها العين المستعجلة؛ رفوف خشبية قديمة، وعلب مرصوفة تحمل آثار الزمن، وصور باهتة على الجدران، وأشياء بسيطة تشهد على سنوات طويلة من الحياة اليومية.

كان في المكان دفء غريب.

دفء لا تمنحه الأماكن الواسعة والفاخرة دائماً.

شعرت للحظة برغبة في البقاء. أن تجلس على أحد الكراسي القديمة، وتشرب كوباً من الشاي مع الرجل، وتستمع إلى حكاياته عن الناس الذين مروا من أمامه، وعن مدينة تغيرت بينما بقي هو في مكانه. ثم تذكرت سبب وجودها.

لم تأتِ بحثاً عن الراحة.

جاءت بحثاً عن الفهم.

لم تأتِ لتنسى نفسها، وإنما لتكتشف جانباً آخر منها.

فعادت بعينها إلى الرجل الذي كان لا يزال يعد النقود، وإلى العملات التي كانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى أرقام.

وبعد وقت، انتهى الرجل من الحساب. رفع رأسه إليها وقال:

«المبلغ كبير فعلاً... لكن ليس لدي كل هذه النقود الورقية في المحل. أستطيع أن أعطيك جزءاً الآن، وأحتفظ بالباقي عندي، وتأتين غداً لتأخذه. هل يناسبك ذلك؟»

فاجأها اقتراحه، لكنه كان منطقياً. فالبقالة الصغيرة لم تكن مكاناً يحتفظ فيه صاحبها بمبالغ كبيرة، ومعظم تعاملاته اليومية كانت بسيطة. لم يكن أمامها خيار آخر؛ حمل الكيس بكل ما فيه أصبح أمراً صعباً، والذهاب إلى مكان آخر قد يلفت الانتباه أكثر.

هزت رأسها موافقة وقالت بصوت منخفض:

«نعم، لا بأس... سأعود غداً لأخذ الباقي.»

حين نطقت الكلمات، شعرت ربما بإحساس غريب. كأن الصوت الذي خرج منها لم يكن صوتها الذي عرفته طوال السنوات الماضية، وإنما صوت المرأة التي بدأت تتشكل داخلها خلال الساعات الأخيرة؛ صوت إنسانة لم تعد تملك رفاهية الاختيار الكامل، إنسانة تقبل بما يُعرض عليها لأنها تعرف أن الاعتراض ليس دائماً ممكناً لمن يعيشون على أطراف العالم.

وفي الوقت نفسه، أدركت أن هذا الاتفاق البسيط صنع خيطاً جديداً يصلها بهذا المكان. أصبح عليها أن تعود غداً، وأن تلتقي بهذا الرجل مرة أخرى، وأن تدخل مساحة أخرى من حياة لم تكن تعرفها من قبل؛ حياة البقالات الصغيرة، والمعاملات اليومية العابرة، والعلاقات القصيرة التي قد تحمل أحياناً معنى لا تمنحه العلاقات الطويلة.

وقفت ربما أمام المنضدة الخشبية، وشعرت أن اللحظة تتحرك ببطء شديد، كأن الزمن يمنحها فرصة كي ترى ما وراء ظاهر الأشياء. في الخارج، كان الأمر مجرد استبدال عملات معدنية بأوراق نقدية. أما في داخلها، فقد كان شيئاً آخر تماماً.

كان مواجهة جديدة مع هويتها، ومع قدرتها على البقاء خارج العالم الذي عاشت فيه طويلاً. كانت تحمل كيساً من النقود، لكنها كانت تحمل معه ثقل تجربة كاملة؛ تجربة اجتمع فيها الخوف والفضول، الضعف والقوة، الرغبة في الهروب والحاجة إلى المواجهة.

كانت هذه اللحظة الصغيرة في بقالة قديمة أول احتكاك حقيقي لها بالعالم الذي اختارت دخوله. لم تعد المسألة مرتبطة بملابس مختلفة أو

جلوس مؤقت على رصيف. لقد بدأت تلامس الحياة نفسها؛ تفاصيلها اليومية، ووجوهها، ومواقفها، ومشاعرها التي لا يمكن تقليدها مهما كان الإعداد دقيقاً.

وللمرة الأولى، شعرت ربما أن شخصية المتسولة التي حاولت ارتدائها لم تعد مجرد قناع مؤقت. أصبحت نافذة تنظر من خلالها إلى عالم جديد؛ عالم كان قريباً منها طوال حياتها، غير أنها لم تقترب منه حقاً إلا الآن.

«هل من الممكن استبدال هذه النقود بنقود ورقية... من فضلك؟» خرج السؤال من فم ربما بصوت منخفض متردد، كأنه لم يصعد من حنجرتها فقط، وإنما جاء من مكان أعمق في داخلها لم تكن تعرف وجوده. حملت الكلمات خليطاً غريباً من الخجل والحاجة؛ من رغبتها في الاحتفاظ بما تبقى من تهذيبها وكرامتها، ومن خوفها في الوقت نفسه من الرفض أو النظرة التي تختزلها في صورة عابرة. كانت تقف في موقف يجعلها تعترف، ولو مؤقتاً، بأنها أصبحت تعتمد على رحمة الآخرين.

شعرت بعيني صاحب البقالة تراقبها من خلف نظارته السمكية. لم تكن نظرة اتهام، وإنما محاولة للفهم. كان يحاول أن يقرأ ما وراء النقاب، وأن يعرف من تكون هذه المرأة التي تقف أمامه بثيابها السوداء وكيسها الممتلئ بالعملات المعدنية.

وللحظة، شعرت ربما أن كل شيء يتوقف على رد فعله؛ على الطريقة التي سيرى بها وجودها، وعلى الكلمة التي سيختارها، وعلى

ما إذا كان سيعاملها كإنسانة تقف أمامه، أم كحالة غريبة تستحق الاستجواب.

«طبعًا... كم عددها؟» قال الرجل بهدوء.

كانت إجابته بسيطة إلى درجة أنها أربكتها.

لم تحمل دهشة، ولا استغرابًا، ولا فضولًا زائدًا. تعامل مع الأمر كأنه طلب عادي من شخص عادي. كأن امرأة تأتي بكمية من العملات المعدنية لتستبدلها بأوراق نقدية ليست مشهدةً نادرًا في عالمه.

كان في بساطته شيء من الطمأنينة، لأنه خفف عنها ثقل اللحظة. وفي الوقت نفسه، فتح داخلها أسئلة جديدة.

هل يحدث هذا كثيرًا؟

هل اعتاد أصحاب المحلات رؤية أشخاص يجمعون العملات ثم يأتون لتحويلها؟

هل كانت حياة المتسولين مليئة بتفاصيل يومية كهذه، تفاصيل لم ترها لأنها كانت تنظر إليهم دائمًا من مسافة بعيدة؟

هزت رأسها قليلًا وقالت:

«لا أعرف... عدّها، من فضلك.»

بدت الجملة بسيطة، لكنها حملت إحساسًا خفيًا بالعجز. لم يكن عجز امرأة تجلس على الرصيف فقط، وإنما عجز إنسان دخل عالمًا جديدًا ولم يعد يعرف قواعده. إنسان يكتشف فجأة أن هناك أشياء لا

يتعلمها من الكتب، ولا من المراقبة، وإنما من الوقوف داخل التجربة نفسها.

أخذ صاحب البقالة الكيس ووضعه على المنضدة الخشبية القديمة. ثم بدأ يفرغ العملات المعدنية ويرتبها بهدوء، كما لو أنه يقوم بعمل اعتاد عليه منذ سنوات. تحركت أصابعه الخشنة بين القطع النقدية بخفة، تجمع المشابه منها، وتصنع مجموعات صغيرة، ثم تعود إلى العد مرة أخرى للتأكد.

كان صوت العملات وهي تصطدم بالخشب يملأ المكان. صوت معدني متقطع بدا لريما كأنه يحمل حكايات كل يد مرت بها هذه النقود قبل أن تصل إليها. وبينما كان الرجل منشغلاً بالعد، رفع عينيه إليها وقال بنبرة تحمل فضولاً خفيفاً:

«يبدو أنك متسولة جديدة في هذا الحي؟»

كان السؤال بسيطاً في ظاهره، غير أنه جعل قلب ريما يخفق بسرعة. شعرت أنه اقترب خطوة من الحقيقة. لم يكن السؤال عن المكان فقط، وإنما عن الحكاية التي تقف خلفه؛ عن سبب وجودها هنا، وعن المرأة التي تحاول إخفاءها تحت العباءة والنقاب.

كان اختباراً صغيراً لقدرتها على الاستمرار في الدور الذي اختارته. أخذت نفساً قصيراً وقالت:

«نعم... كنت أتسول في مكان آخر.»

حاولت أن تجعل صوتها طبيعياً، كأنها تقدم معلومة عادية لا تحتاج إلى تفسير.

كانت تعرف أن أفضل طريقة لحماية الحقيقة ليست اختراع قصة طويلة، وإنما ترك أقل قدر ممكن من الكلمات خلفها. كانت تسير على خيط دقيق بين الغموض والإقناع؛ بين صمت قد يثير الشك، وكلام زائد قد يقود إلى ما تحاول إخفاه.

لكن الرجل لم يضغط عليها. اكتفى بأن هز رأسه، وكأنه فهم شيئاً لا يحتاج إلى مزيد من الأسئلة. ربما لأنه أدرك أن لكل إنسان حكايته الخاصة، وأن بعض الحكايات لا تُروى إلا عندما يكون صاحبها مستعداً لروايتها.

بعد دقائق من العد، قال:

«هذه تساوي اثني عشر ديناراً... تفضلي.»

ومد إليها الأوراق النقدية.

نظرت ريما إلى المال في يدها، وشعرت بإحساس يصعب تحديده. لم تكن ترى أوراقاً نقدية فقط، وإنما كانت ترى أثر رحلة كاملة. كانت العملات المعدنية التي جمعتها تحمل ساعات الوقوف، ووجوه العابرين، والنظرات التي التقت بها، واللحظات القصيرة التي عبرت بينها وبين غرباء لم تعرف أسماءهم.

أما هذه الأوراق الخفيفة، فقد بدت لها كأنها خلاصة صامتة لكل تلك التجربة؛ علامة صغيرة على أنها دخلت عالماً كان قريباً منها طوال حياتها، غير أنها لم تلمسه إلا الآن.

كانت النقود الورقية أخف من العملات التي حملتها، غير أنها حملت ثقلاً آخر؛ ثقل المعنى، وثقل الأسئلة التي بدأت تتشكل في داخلها حول المال والكرامة، والعطاء والحاجة، والصورة التي يصنعها الإنسان عن نفسه، والصورة التي يرسمها الآخرون له.

«شكراً لك...»

قالتها ربما بصوت منخفض، لكنها هذه المرة لم تكن تؤدي دوراً. كان الامتنان حقيقياً.

لم تشكره فقط لأنه ساعدها في استبدال النقود، وإنما لأنه منحها شيئاً نادراً في تجربتها الأولى؛ أن تُعامل كإنسانة عادية. لم ينظر إليها باحتقار، ولم يغرقها بشفقة تجعلها تشعر بصغرها، ولم يضعها في مساحة مختلفة عن الآخرين. تعامل معها ببساطة، كإنسانة لها حاجة، لا كحالة تنتظر تفسيراً.

وفي تلك اللحظة، فهمت أن الكرامة لا تسكن دائماً في الأشياء التي نملكها، ولا في الملابس التي نرتديها، ولا في الأماكن التي نقف فيها. أحياناً تولد في الطريقة التي يرى بها إنسان إنساناً آخر؛ في نظرة احترام، أو كلمة هادئة، أو موقف صغير قد يمر سريعاً في حياة صاحبه، بينما يبقى طويلاً في ذاكرة من تلقاه.

كان هذا الرجل البسيط في بقالته الصغيرة قد منحها درساً لم تمنحها إياه الكتب التي قرأتها، ولا التقارير التي كتبتها. علّمها أن الإنسانية لا تحتاج دائماً إلى مساحات واسعة كي تظهر، فقد تخبّئ في زاوية ضيقة،

خلف منضدة خشبية قديمة، حين يقرر شخص أن يساعد شخصاً آخر دون أن يسأله عن اسمه أو ماضيه.

«أنتظر في الجولة القادمة.»

قالها صاحب البقالة بابتسامة هادئة، وكأن الكلمات تركت نافذة صغيرة مفتوحة نحو لقاء آخر.

لم تكن مجرد عبارة عابرة. كان فيها شيء من الطمأنينة، شيء يقول لها إن هذا المكان لن يغلق بابه في وجهها، وإن حضورها القصير في حياته لم يكن مجرد لحظة مرت ثم اختفت.

بدت الكلمات بسيطة، غير أنها حملت معنى أعمق من علاقة بين امرأة جاءت لتبديل نقود ورجل يملك متجرًا صغيرًا. كانت تعبر عن ذلك النوع الغريب من الثقة الذي يولد أحيانًا بين الغرباء؛ ثقة لا تحتاج إلى سنوات من المعرفة، وإنما تحتاج إلى لحظة يرى فيها أحدهم الآخر كما هو.

شعرت ربما أن هذا الرجل، الذي لم تعرفه إلا منذ دقائق، أصبح جزءًا من قصتها الجديدة. جزءًا من العالم الذي بدأت تكتشفه، وجزءًا من الذاكرة التي كانت تتشكل يوميًا بعد يوم.

خرجت من البقالة وهي تحمل النقود الورقية في يدها، لكنها شعرت أن شيئًا آخر أصبح أخف داخلها.

لم يكن الخفة ناتجة عن تحول العملات الثقيلة إلى أوراق نقدية فقط، وإنما عن إحساسها بأنها تجاوزت مواجهة جديدة مع نفسها.

دخلت هذا العالم خائفة ومتردة، غير متأكدة من قدرتها على الاستمرار، وها هي الآن تشعر بأنها تستطيع الماضي قليلاً أبعد مما توقعت.

كانت تعرف أن هذه مجرد البداية. أمامها وجوه كثيرة ستلتقيها، ومواقف كثيرة ستختبرها، وأسئلة كثيرة ستظل تبحث عن إجاباتها. غير أنها بدأت تدرك أن الإنسان لا يتغير فقط عند المنعطفات الكبرى، وإنما في تلك اللحظات الصغيرة التي تعيد ترتيب نظرتة إلى نفسه وإلى الآخرين.

نظرت إلى النقود الورقية التي استقرت في كفها. كانت خفيفة المظهر، ثقيلة المعنى.

لم تعد تراها مجرد مال جمعته من أيدي الناس، وإنما آثاراً لوجوه كثيرة، وقرارات صغيرة، ولحظات إنسانية حدثت في ثوانٍ معدودة. كان هناك من أعطى بدافع الرحمة، ومن أعطى بدافع العادة، ومن أعطى لأنه لم يحتمل أن يمر أمام الحاجة دون استجابة. وفي النهاية، حملت كل قطعة أثراً من علاقة معقدة بين إنسان وآخر.

قبل هذه التجربة، كانت تظن أن حياة المسؤولين تختصر في الانتظار والحرمان، وفي ساعات طويلة من الوقوف تحت الشمس والبرد بحثاً عن بعض العملات.

أما الآن، فقد بدأت ترى طبقات أخرى لم تظهر في تقاريرها السابقة. كان هناك عالم كامل من التفاصيل الخفية؛ عالم من النظرات،

والاختيارات، والصمت، والحسابات الداخلية التي تحدث في اللحظة القصيرة بين شخص يطلب وشخص يقرر أن يعطي.

نظرت إلى ساعتها.

لم تكن العاشرة صباحاً قد تجاوزت.

كانت الشمس ترتفع ببطء فوق المدينة، تكشف حركة الشوارع التي بدأت تزداد، وتعلن أن النهار ما زال يحمل ساعات طويلة أمامها.

وقفت ربما للحظة في وسط المكان، تشعر بأنها عند بداية طريق لا تعرف نهايته.

كان بإمكانها أن تستمر طوال اليوم، وأن تجمع مبلغاً أكبر، لكنها شعرت أن النقود لم تعد هي المركز الحقيقي للتجربة.

بدأت تفهم أن القيمة لا تكمن في حجم المبلغ، وإنما في المعاني المختبئة خلفه؛ في معرفة الإنسان لنفسه، وفي اقترابه من الآخرين، وفي المسافة الدقيقة بين يد تمتد طلباً ويد تمتد بالعطاء.

رفعت عينيها نحو السماء وهمست بالشكر.

لم تكن تعرف تماماً إن كان ذلك الصوت نابعاً من إيمان عميق، أم من حاجة داخلية إلى الاعتراف بأن الإنسان ليس سيد كل شيء في هذا العالم.

لكنها شعرت به بصدق.

شعرت بالامتنان لهذا الرزق الذي جاءها من أيدي أشخاص لا تعرف أسماءهم ولا قصصهم؛ أشخاص عبروا حياتها للحظات قصيرة،

ثم عادوا إلى طرقهم الخاصة، تاركين أثراً لم يدركوا أنهم تركوه.
كان الشكر بالنسبة لها أكثر من كلمات.
كان اعترافاً بأن الإنسان، مهما ظن أنه مستقل، يبقى جزءاً من شبكة
واسعة من الأخذ والعطاء، وأن الحياة لا تُعاش منفردة مهما حاولنا.
ثم اتجهت نحو الباص التالي الذي كان يستعد للمغادرة.
كان السائق يشغل المحرك، والركاب يصعدون تباعاً.
هذه المرة لم تكن ربما المرأة نفسها التي صعدت إلى الباص الأول.
كان هناك تغير صغير يسكنها؛ تغير لا يظهر للعين بسهولة، لكنه
كان حاضراً. لم يعد الخوف يملك المساحة نفسها، ولم تعد خطواتها
تحمل ذلك التردد الأول.
منحتها التجربة الأولى معرفة جديدة: متى تتكلم، وكيف تنظر،
وكيف تتحرك، وكيف تحافظ على الشخصية التي اختارت أن تعيشها.
صعدت إلى الباص.
بدأت جولتها الثانية.
وقفت بين المقاعد، ورددت كلماتها بصوت أكثر ثباتاً، ومدت
يدها، وانتظرت.
هذه المرة لم تشعر بأنها تدخل امتحاناً للمرة الأولى.
كانت تشعر أنها بدأت فعلاً تعبر إلى هذا العالم؛ عالم لم تعد تراه من
الخارج، وإنما من الداخل.

كانت العملات تسقط في الكيس بسرعة أكبر. لم تكن تعرف هل السبب أن الركاب أكثر كرمًا، أم لأنها أصبحت أكثر قدرة على إيصال حاجتها، أم لأن هذا الخط مختلف، أو لأن الناس في هذا المكان أكثر استعداداً للعطاء. ربما كانت كل هذه الأسباب مجتمعة. لكنها كانت تعرف شيئاً واحداً: أن الكيس بدأ يمتلئ بسرعة، وأنها قبل أن تنتهي الجولة الثانية كانت قد جمعت أكثر من اثني عشر ديناراً، مبلغاً تجاوز ما جمعته في المرة الأولى.

نظرت إلى الكيس بدهشة مختلفة. لم تعد دهشة المال، وإنما دهشة الإنسان أمام عالم ظل قريباً منه طوال الوقت، ومع ذلك بقي بعيداً عن وعيه. عالم كان يمر بجانبه كل يوم دون أن يراه حقاً.

وسألت نفسها:

ما الذي يدفع الإنسان إلى العطاء؟

أهو الرحمة؟

أم الشعور بالذنب؟

أم الرغبة في تخفيف ألم شخص آخر؟

أم أن هناك شيئاً أعمق من ذلك كله؛ شيئاً يجعل الإنسان يرى جزءاً من نفسه في وجه إنسان آخر، فيمد يده إليه لأنه يشعر، ولو للحظة قصيرة، أنه يمنح شيئاً من ذاته؟

وللمرة الثانية، وجدت ربما نفسها أمام سؤال يتجاوز المال وحده:

ماذا يعني أن يعطي الإنسان؟

وماذا يعني أن يحتاج؟

وهل المسافة بين اليد التي تمتد طلبًا واليد التي تمتد عطاءً واسعة كما نظن، أم أن كلتا اليدين تبحثان في النهاية عن الشيء نفسه؛ عن الاعتراف، وعن الرحمة، وعن ذلك الاتصال الخفي الذي يجعل الإنسان أقل وحدة في هذا العالم؟

كانت هناك لحظة مختلفة داخل ذلك الباص؛ لحظة شعرت فيها ربما أن كل ما عاشته حتى الآن لم يكن طريقًا بلا معنى، وأن هذه التجربة، بكل خوفها وتعبها وترددها، كانت تحمل شيئًا يستحق الاكتشاف.

في أحد المقاعد القريبة منها، كان يجلس رجل مسن تبدو على وجهه آثار أعوام طويلة من العمل والانتظار والتجربة. كان يرتدي ملابس بسيطة، ويمسك بين أصابعه مسبحة خشبية تتحرك حباتها ببطء مع حركة يده.

لم يكن في مظهره ما يجذب الانتباه، غير أن ملامحه كانت تحمل ذلك الهدوء النادر الذي لا يولد إلا بعد أن يعبر الإنسان عواصف كثيرة، ثم يتعلم أن يصادق صمته. نظر إليها طويلًا.

لم تكن نظراته فضولًا، ولا شفقة، وإنما شيئًا أقرب إلى التأمل والفهم. كأنه لم ير امرأة تمد يدها طلبًا للمساعدة، وإنما رأى إنسانة تحمل خلف صمتها قصة لا يعرف تفاصيلها.

مد يده ووضع في كيسها مبلغًا بسيطًا.

كان بسيطًا في حجمه، غير أنه لم يكن بسيطًا في أثره.

حمل معه دفنًا خاصًا، كأنه لم يمنحها مالا فقط، وإنما منحها إحساسًا بأنها مرئية، وأن وجودها لم يمر دون أن يلاحظه أحد.

ثم قال بصوت منخفض:

«ابنتي، لا تخافي... الله معك، وهو سيرزقك من حيث لا تحتسبين.»

دخلت كلماته إلى قلبها بطريقة لم تتوقعها.

لم تكن مجرد عبارة دينية سمعتها من قبل، وإنما أصبحت في تلك اللحظة حاملة لحياة كاملة؛ حياة رجل مسن ما زال يؤمن بأن الرحمة يمكن أن تبقى حاضرة، رغم كل ما رآته عيناه من قسوة الأيام.

شعرت ربما بدمعة تقترب من عينيها.

لم تكن دمعة حزن فقط، وإنما دمعة ذلك الاكتشاف المفاجئ بأنها ليست وحدها في هذه الرحلة. فهناك أرواح تمر في حياتنا لدقائق قليلة، ثم تترك وراءها أثرًا لا تستطيع السنوات محوه.

كان هذا الرجل واحدًا من تلك الأرواح.

لم يعرف اسمها، ولم يعرف قصتها، ولم يعلم أنها صحفية جاءت تبحث عن إجابات خلف وجوه الآخرين. ومع ذلك، منحها شيئًا لم تكن تتوقع العثور عليه؛ لحظة صافية من التواصل الإنساني.

خففت رأسها قليلًا، وأومأت له بالشكر، ثم واصلت طريقها بين المقاعد.

كانت تحمل في داخلها دفء كلماته، وتشعر بأن دعاءً صادقاً يخرج من قلب غريب قد يكون أحياناً أثقل وزناً من المال نفسه.

عندما أنهت جولتها في الباص الثاني، وقبل أن تتجه إلى الباص الثالث، شعرت ربما بحاجة إلى التوقف.

كان جسدها يطلب الراحة، وكانت روحها تحتاج إلى مساحة هادئة تستوعب فيها ما حدث.

خلال ساعات قليلة فقط، عبرت داخلها مشاعر متناقضة لم تكن تتوقعها؛ الخوف، والخجل، والدهشة، والتعاطف، والانكشاف، وذلك الإحساس الغامض بأنها تقترب من شيء لم تفهمه كاملاً بعد.

نظرت حولها، فلفت انتباهها مقهى صغير في زاوية الشارع.

لم يكن مكاناً فاخراً، وإنما مقهى بسيط يحمل ملامح الأماكن التي تقاوم تغير الزمن. غير أن ما جذبها لم يكن شكله، وإنما رائحة القهوة العربية التي كانت تتسلل من بابه المفتوح.

كانت رائحة مألوفة.

أعادتها للحظة إلى بيتها، إلى والدتها، إلى جلسات العائلة القديمة حين كانت القهوة تجمع الجميع حول أحاديث طويلة عن تفاصيل الحياة الصغيرة.

دخلت المقهى.

طلبت فنجاناً من القهوة العربية، ثم جلست في زاوية هادئة بعيدة عن حركة المكان.

أمسكت الفنجان بيدها وشربت ببطء.

كانت القهوة ساخنة ومرة، غير أنها بدت لها في تلك اللحظة أكثر من مجرد مذاق. منحتها فرصة للتوقف، وللتنفس، ولإعادة ترتيب الأفكار التي كانت تتزاحم في داخلها منذ بداية الصباح.

كانت تنظر إلى النقود التي جمعتها، وتتساءل بدهشة:

كيف يمكن لشخص يقف على الرصيف أو يصعد إلى الباص أن يجمع هذا المبلغ خلال ساعات قليلة، بينما هناك أشخاص يعملون أياماً طويلة ولا يحصلون إلا على أقل منه؟ كيف يمكن أن يكون التسول بهذه السهولة الظاهرة، وهذه الصعوبة الخفية في الوقت نفسه؟ كيف يمكن للناس أن يمدوا أيديهم بالعطاء في لحظة، ثم يمروا بجانب متسولين آخرين في اليوم نفسه دون أن يلتفتوا؟

لم تكن الأسئلة تبحث عن إجابات جاهزة، وإنما كانت تفتح أمامها مساحات جديدة للتأمل. بدأت تدرك أن المال يتجاوز قيمته المادية، وأن العطاء أكبر من حركة يد تمتد ثم تعود، وأن العلاقة بين من يملك ومن يحتاج أكثر تعقيداً مما كانت تتصور.

خلف كل قطعة نقدية قصة لا تُروى، وخلف كل رفض أو قبول عالم كامل من المشاعر والأفكار والظروف التي لا تظهر على السطح. ثم عادت أفكارها إليها هي.

نظرت إلى المرأة الجالسة في هذا المقهى؛ امرأة ترتدي النقاب وتحمل في جيبها مبلغاً جمعته من أيدي غرباء، وسألت نفسها:

من أنا الآن؟

هل ما زلت ريما الصحفية التي اعتادت أن تنظر إلى الآخرين من خلف دفتر ملاحظاتها، وتحول حياتهم إلى كلمات وتقارير؟

أم أنني أصبحت جزءاً من العالم الذي كنت أراقبه؟
أين تنتهي شخصية الصحفية، وأين تبدأ شخصية المرأة التي تجلس على الرصيف؟

وهل يستطيع الإنسان أن يدخل تجربة مختلفة ثم يخرج منها كما كان؟

كانت تشعر بأنها تقف أمام باب داخلي لم تعرف بعد ما الذي ينتظرها خلفه. لم تكن تعلم إن كانت ستعود إلى حياتها السابقة كما كانت، لكنها كانت تعرف شيئاً واحداً: المرأة التي خرجت من منزلها هذا الصباح لن تكون المرأة نفسها التي ستعود إليه في النهاية.

للمرة الأولى منذ سنوات، شعرت أنها لا تعيش من أجل العمل والإنجاز والقصص التي تكتبها فقط. كانت تعيش شيئاً لا يمكن اختزاله في تقرير أو عنوان؛ تجربة تُقاس بما تتركه في الداخل، وبالأئلة التي توقظها، وبالأجزاء الخفية من الذات التي تكشفها.

غير أن تلك اللحظة الهادئة لم تدم طويلاً.

كانت ريما لا تزال تحتسي قهوتها، تحاول أن تستوعب ما مر بها منذ الصباح، حين شعرت بأن شيئاً تغير في المكان.

لم تعد وحدها.

كان هناك حضور جديد، حضور أثقل من أن يُتجاهل، جعلها ترفع رأسها ببطء.

ظهر أمامها ظل طويل حجب جزءاً من الضوء القادم من الباب. رفعت عينيها، فرأت رجلاً يقف أمامها. كان يرتدي نظارة سوداء أخفت معظم ملامحه، حتى بدا وجهه كأنه مغلق، كأنه لا يريد أن يترك لها فرصة لقراءة ما يدور خلفه.

لم يكن مظهره يشبه زبوناً عادياً دخل ليشرب قهوة أو يشتري شيئاً سريعاً. كان في وقفته قصد واضح، وفي صمته انتظار ثقيل. شعرت ربما أن وجوده أمامها لم يكن مصادفة، وأن هذا الرجل يحمل سؤالاً لا تعرف كيف ستواجهه.

ثم قال بصوت مباشر:

«أنتِ لأي جهة تتبعين؟»

كانت الكلمات قصيرة.

مع ذلك، وصلت إليها كضربة مفاجئة.

توقفت أنفاسها للحظة.

شعرت بأن كل ما صنعتته من تنكر، وكل الثقة التي بنتها خلال الساعات الماضية، بدأ يهتز أمام سؤال واحد. لم تعد أمام ركاب عابرين لا يعرفونها، ولا أمام صاحب بقالة رأى فيها إنسانة عادية. كانت أمام شخص يبدو أنه يبحث عن شيء محدد.

بقيت جالسة، تحاول أن تخفي ارتباكها.

كان السؤال بسيطاً في ظاهره، غير أنه فتح أمامها احتمالات مخيفة.

ماذا لو عرف حقيقتها؟

ماذا لو اكتشف أنها ليست متسولة؟

ماذا لو كان هذا هو الاختبار الذي لم تستعد له؟

لأول مرة منذ بدأت تجربتها، شعرت ريما بأن القناع الذي ارتدته قد لا يكون كافياً. وأن أكثر ما يكشف الإنسان ليس ملامحه، وإنما اللحظة التي يفقد فيها السيطرة على خوفه.

«أنا؟!»

قالتها ريما وكأنها تبحث داخل الكلمة عن وقت إضافي. خرج صوتها متردداً، يحمل دهشتها وقلقها ومحاولتها أن تجد إجابة لا تفضح ارتباكها.

لكن الرجل لم يمنحها المساحة التي كانت تحتاجها.

«نعم، أنت... أنا أتحدث معك!»

قالها بصوت حاد، يحمل يقيناً أكثر مما يحمل سؤالاً. بدا كأنه لا ينتظر تفسيراً، وإنما ينتظر اعترافاً. كأنه يحاول الوصول إلى ما خلف القناع، لا إلى الكلمات التي تختارها بعناية.

شعرت ريما للحظة أن كل شيء حولها فقد توازنه.

بدا لها أن الجدار الذي بنته خلال الأيام الماضية من التخطيط والتدريب بدأ يتصدع، وأن الثقة التي دخلت بها هذه التجربة أخذت تتراجع أمام هذا الموقف المفاجئ.

لكنها سرعان ما تذكرت الحقيقة التي جاءت من أجلها.

هي ليست ربما الصحفية الآن.

ولست المرأة التي يعرفها الناس.

إنها تلك الشخصية التي اختارت أن تعيشها؛ امرأة بلا اسم معروف،
بلا تاريخ ظاهر، بلا علاقات يمكن أن تقود إليها.

حاولت أن تجعل صوتها هادئاً، وأن تخفي ارتباكها، فقالت:

«أنا لا أتبع أي جهة... أنا امرأة فقيرة، وأتسول على باب الله.»

كانت كلمات بسيطة، لكنها كانت أقصى ما تستطيع قوله في تلك
اللحظة. حاولت أن تعيد الموقف إلى إطاره الطبيعي، أن تجعله يرى
أمامه امرأة محتاجة لا أكثر، لا شخصاً يحمل سراً، ولا امرأة تخفي
وراء النقاب قصة أخرى.

لكن الرجل لم يبد مقتنعاً. ابتسم ابتسامة خفيفة لم تعرف ريمًا
معناها، ثم قال بصوت أكثر صرامة:

«هذا الكلام لا يُقال لي... هذا الكلام يُقال للناس العاديين.»

توقفت عند هذه العبارة. لم تكن مجرد جملة عابرة؛ شعرت بأنها
فتحت أمامها باباً إلى عالم آخر، عالم لم تكن تعرف أنه موجود. عالم
تحكمه طبقات خفية من المعرفة والنفوذ، حيث لا تكفي الحقيقة كما
تبدو للعين، لأن هناك دائماً من يبحث عن المعنى الذي يختبئ خلفها.
شعرت بأنها دخلت فجأة إلى مساحة لا تسير وفق القوانين التي اعتادت

عليها، مساحة تحكمها قواعد غير مكتوبة، لا تظهر في الكتب ولا تجد طريقها إلى التقارير.

تسلل الخوف إلى قلبها. لم يكن خوف انكشاف التمثيل وحده، وإنما خوف الإنسان حين يشعر بأن زمام اللحظة بدأ يفلت من يده. خشيت أن تسقط التجربة كلها، وأن تتحول مغامرتها الصحفية إلى موقف لا تعرف كيف تخرج منه. غير أنها أدركت في تلك اللحظة أن الدور الذي اختارته يتطلب أكثر من تغيير المظهر؛ يتطلب أن تفهم العالم من الداخل، وأن تقترب من حياة أولئك الذين قررت أن تمشي في طرقهم.

أغمضت عينيها للحظة، أخذت نفساً عميقاً، ثم قالت بصوت حاولت أن تمنحه شيئاً من الثبات:

«أنا لا أفهم ما الذي تقصده. أنا امرأة فقيرة، لا أعرف شيئاً عن الجهات أو التنظيمات. أنا فقط أجمع ما يرزقني به الناس، وهذا كل ما في الأمر.»

هذه المرة لم تكن كلماتها مجرد جزء من الدور الذي تؤديه. كان فيها شيء من حقيقتها أيضاً. فقد كانت بالفعل تقف أمام عالم لا تعرف خرائطه، وتحاول أن تفهم إشارات، كما كانت المرأة التي تقف خلف النقاب عاجزة عن رؤية الصورة الكاملة.

ظل الرجل يراقبها طويلاً. كان يقرأ ما وراء صمتها، يتتبع ارتعاش صوتها، ويحاول أن يكتشف إن كانت تخفي شيئاً أم أنها مجرد امرأة

وجدت نفسها في مكان لا تعرف قواعده. وبعد لحظات من الصمت،
بدا وكأنه اختار أن يؤجل حكمه.

قال بصوت أكثر هدوءاً:

«حسنًا... لكن انتبهى. هذا الحي ليس مكانًا عاديًا. هناك عيون
تراقب كل شيء، فلا تظني أنك تستطيعين أن تفعلي ما تشائين دون أن
يلاحظك أحد.»

لم تكن كلماته تهديدًا مباشرًا، لكنها حملت ظلاً من التحذير. كانت
تقول لها بطريقة غير معلنة إن العالم الذي دخلته أوسع وأكثر تعقيداً
مما تخيلت، وإن الأرصفة التي تبدو مفتوحة للجميع تخفي بدورها
حدوداً لا تراها العيون.

ثم استدار الرجل وغادر.

بقيت ريما وحدها في المقهى. شعرت بأن الهواء عاد ببطء إلى
رئتيها، وأن قلبها الذي كان يطرق صدرها بعنف بدأ يستعيد إيقاعه
المعتاد. نظرت إلى فنجان القهوة الذي برد أمامها، وشعرت بأنه لم يعد
مجرد فنجان تركته على الطاولة؛ أصبح شاهداً على دقائق قليلة كشفت
لها شيئاً لم تكن مستعدة لرؤيته.

أدركت أن ما حدث لم يكن سوى البداية. فالأيام القادمة لن تكون
مجرد محاولة لمراقبة حياة المتسولين، وإنما اقتراباً من عالم كامل له
قوانينه وأسراره وصراعاته الصامتة. عالم لا يرتبط بالحاجة وحدها،

وإنما بعلاقات متشابكة بين من يطلب، ومن يعطي، ومن يحاول أن يجعل من حاجة الآخرين مساحة للسيطرة.

نهضت من مكانها، وضعت بعض النقود على الطاولة، ثم خرجت من المقهى. كانت تشعر بأنها لم تعد المرأة نفسها التي دخلته قبل دقائق. اكتشفت أن التسول ليس مجرد يد تمتد في الشارع، ولا مجرد عملات تسقط في كوب بلاستيكي؛ إنه عالم متعدد الوجوه، يحمل دفء الإنسانية أحياناً، ويحمل غموضاً وقلقاً في أحيان أخرى.

ظلت تفكر في الرجل الغامض، في سؤاله، في نظراته، وفي التحذير الذي تركه خلفه. ظنت أنها تجاوزت المواجهة، وأن الأمر انتهى عند تلك الكلمات القليلة، لكنها لم تكن تعرف أن ذلك اللقاء لم يكن سوى العتبة الأولى نحو عالم آخر؛ عالم تتحول فيه الحاجة الإنسانية إلى شبكة معقدة من المصالح والقوى، حيث لا يبقى التسول مجرد ظاهرة اجتماعية، وإنما يصبح أحياناً منظومة لها قواعدها الخفية وأشخاصها الذين يديرون حركتها.

«ماذا تقصد؟» سألت ريما.

حاولت أن تجعل صوتها ثابتاً، غير أن الارتباك تسلل إلى نبرتها. كان في طريقة كلام الرجل، وفي ثقته التي لا تحتاج إلى إثبات، ما جعلها تشعر بأنها تقف أمام عالم أكبر بكثير مما تخيلت. لم تعد المسألة مجرد أشخاص يجلسون على الأرصفة ويمدون أيديهم انتظاراً للمساعدة؛ بدا لها أنها أمام نظام له ترتيب خاص، وأشخاص يحددون حدوده،

وآليات خفية تقرر من يظهر، ومن يختفي، ومن يملك الحق في الوقوف في مكان بعينه.

تدافعت الأسئلة في رأسها: كيف يمكن لنظام كهذا أن يعيش بعيداً عن أعين الجميع؟ كيف يستطيع رجل واحد أن يعرف المتسولين في هذا المكان جميعاً، وأن يتحدث عنهم كما لو كانوا جزءاً من شبكة واحدة؟ وكيف استطاعت هي، وهي التي أمضت شهوراً تبحث وتقرأ وتكتب عن الظواهر الاجتماعية، أن تصل إلى هذا العالم من أقرب أبوابه دون أن ترى طبقاته المخفية؟

ابتسم الرجل ابتسامة قصيرة خلف نظارته السوداء، ثم قال:

«أقصد أنني وكيل جميع المتسولين في هذا الحي... يعني لا يستطيع أي شخص أن يتسول هنا من دون موافقتي. هل تفهمين؟»

نزلت الكلمات عليها بثقل مفاجئ. لم تكن مجرد معلومة جديدة؛ كانت كشفاً عن وجود سلطة لم تكن تراها. كانت نبرته تحمل رسالة واضحة: أنت الآن في منطقتي، وهذا المكان له قوانينه، ومن يدخل إليه عليه أن يعرف من يملك القرار فيه.

ظل ينظر إليها من خلف عدسات نظارته الداكنة، وكأنه يحاول أن يقرأ ما وراء مظهرها، وكأنه يشعر بأن هذه المرأة ليست مثل بقية المتسولين الذين يعرفهم. لكنه لم يكن مستعجلاً على كشف ما يدور في ذهنه. كان يراقب، يختبر، ويترك لها مساحة تتحرك فيها قبل أن يقرر خطواته التالية.

شعرت ربما بأنها دخلت إلى فخ لم يكن في حسابها. كانت تعتقد أنها ستختبر حياة المتسولين من الداخل، أن تفهم معاناتهم اليومية، أن تقترب من عالمهم الإنساني. لكنها اكتشفت فجأة أن هذا العالم ليس بسيطاً كما ظنت، وأن الفقر نفسه قد تحيط به شبكات من المصالح والسيطرة، وأن بعض الأشخاص قد يحولون حاجة الآخرين إلى مصدر نفوذ وقوة.

تذكرت الوجوه التي رأتها في محطة الباصات، الأيدي الممتدة، العيون المنكسرة، الأصوات التي تردد العبارات نفسها. كانت تراهم سابقاً كأفراد منفصلين، كل واحد منهم يحمل قصته الخاصة. أما الآن، فقد بدأت تنظر إليهم بطريقة مختلفة، كأنها ترى خيوطاً غير مرئية تربط بينهم، وكأن خلف المشهد الظاهر عالماً آخر لا يعرفه المارة.

«لا أعرف عما تتحدث.» قالت ربما.

حاولت أن تجعل كلماتها طبيعية، وأن تظهر بمظهر المرأة التي دخلت هذا العالم حديثاً ولا تعرف قوانينه. كان عليها أن تلعب دورها حتى النهاية، وأن تستفيد من جهله بحقيقتها، أو ربما من شكه بها.

لكن الرجل لم يبدو مقتنعاً. اقترب قليلاً، وقال بنبرة أكثر مباشرة:

«كم جمعت من المال؟ أعطيني كل ما جمعته... وأنا أحدد لك الراتب المناسب.»

شعرت ربما وكأن الكلمات هبطت عليها بثقل مفاجئ. لم يكن الرجل يطلب نقوداً فقط؛ كان يطلب اعترافاً بمكانته، وقبلًا بالقواعد

التي وضعها لهذا العالم. كان يحاول نقلها من موقع المرأة التي تخوض تجربة بحثية إلى موقع شخص يدخل في منظومة قائمة لها شروطها وحدودها.

في لحظة واحدة، وجدت نفسها أمام طرق كلها محفوفة بالمخاطر. هل تمنحه المال وتواصل الاقتراب من هذا العالم من الداخل؟ هل ترفض وتغامر بإثارة غضبه؟ هل تكشف حقيقتها وتنتهي كل شيء قبل أن يبدأ؟ كان لكل اختيار ثمنه، ولكل طريق ظله الخاص.

«أي راتب؟» قالت، محاولة أن تخفي غضبها ودهشتها. «أنا لا أريد راتباً... أنا متسولة على باب الله.»

خرجت الكلمات من فمها بنبرة تحمل شيئاً من التحدي. لم تكن مستعدة لأن تسلم آخر مساحة تملكها من حريتها. لقد دخلت هذا العالم باختيارها، لا بتكليف من أحد، ولم تكن تريد أن تتحول تجربتها إلى خضوع لشخص آخر يقرر عنها كيف تعيش الدور الذي اختارته. ابتسم الرجل ابتسامة باردة، كأنه كان ينتظر هذا الاعتراض منذ البداية.

«يبدو أنك لا تعرفين عالم التسول.»

لم تحمل عبارته مجرد تصحيح لمعلومة ناقصة؛ حملت إحساساً بالتفوق، كأنه يكشف لها باباً ظلت واقفة أمامه دون أن تراه. شعرت ربما للحظة بأنه ينظر إليها كامرأة ساذجة دخلت عالماً معقداً وهي تظن أنها أحاطت به، بينما لم تلمس سوى سطحه.

خفضت رأسها قليلاً وقالت:

«نعم... لا أعرف.»

كان الاعتراف ثقيلاً عليها. فهي التي اعتادت أن تكون صاحبة الأسئلة، الباحثة عن الإجابات، الصحفية التي تراقب العالم من خلف دفتريها، وجدت نفسها فجأة في موقع آخر؛ موقع من يحتاج إلى أن يتعلم، ومن يكشف أن المعرفة لا تأتي دائماً من القراءة والمراقبة، وإنما من الوقوف في قلب التجربة.

ابتسم الرجل وكأنه وصل إلى النقطة التي يريد، ثم أشار بيده نحو المكان وقال:

«أنا سأعرفك على هذا العالم. أتشاهدين هؤلاء المتسولين الذين يجلسون في مجمع الباصات هذا؟»
نظرت ريما حولها.

رأت الوجوه التي أصبحت مألوفة لها منذ الصباح. المرأة القرية من المدخل، الرجل المسن الذي يحمل كيساً قديماً، الطفل الذي يتحرك بين المسافرين بخطوات سريعة. كانت تراهم من قبل كأفراد يعيشون ظروفًا قاسية، لكنها بدأت تنظر إليهم الآن من زاوية أخرى. ماذا يوجد خلف هذا المشهد الظاهر؟ ما الحكايات التي بقيت خارج النظر؟ وما العلاقات التي لا تظهر إلا لمن يعرف كيف يبحث عنها؟
«نعم.» أجابت بصوت خافت.

كانت تعرف أنهم هنا، لكنها لم تكن تعرف أنهم قد يكونون جزءاً من عالم أكبر، عالم له ترتيبه الخاص، وربما له من يراقب حركته ويدير تفاصيله.

«كلهم يعملون عندي... أجمع ما يحصلون عليه كل يوم، وأمنحهم رواتب شهرية...»

قالها الرجل بثقة، ثم تابع وهو يثبت عينيه عليها:
«وإذا أردت أن عملي معي... فأحضري جواز سفرك، وصورة شخصية لك. من دون ذلك لا مكان لك هنا.»

نطق بها كما لو أنها قاعدة قديمة لا تحتاج إلى تفسير، وكأنه يضع أمامها طريقاً واحداً فقط: الدخول إلى منظومته وفق شروطه، أو مغادرة المكان، أو مواجهة نتائج لا تعرف حدودها.

شعرت ربما بأنها تقف أمام مرآة جديدة تكشف لها وجهاً آخر للحقيقة التي ظنت أنها تعرفها. أدركت فجأة أن الفقر قد لا يكون دائماً صورة فرد وحيد يجلس على الرصيف ويمد يده انتظاراً للمساعدة؛ قد يتحول أحياناً إلى عالم له بنيته الخاصة، وطبقاته، وأشخاص يتحكمون في مساراته، وآخرون يعيشون داخله دون أن يملكوا حق اختيار قواعده. كانت تشعر بأن كل ما كتبه عن التسول في تقاريرها الصحفية لم يكن سوى طبقة رقيقة فوق واقع أكثر تعقيداً. كان أمامها عالم خفي يتحرك تحت السطح؛ عالم من التنظيم والاستغلال والسيطرة، لا تلتقطه العين العابرة. لم تعد ترى المتسولين كأفراد منفصلين دفعتهم الظروف إلى

الشارع فقط، وإنما كجزء من شبكة مغلقة، تحكمها علاقات لا يعرفها المارون، وقواعد لا يختارها من يعيشون تحتها.

«ماذا تقول؟... هل أنت مجنون؟»

قالت ربما ذلك، وكان صوتها يرتجف رغم محاولتها الحفاظ على تماسكها. اختلط في نبرتها الغضب بالخوف والدهشة. شعرت بأنها فقدت السيطرة على اللحظة، وأنها دخلت مساحة لم تكن مستعدة لها؛ مساحة يقف فيها رجل أمامها كما لو أنه يملك مفاتيح عالم كامل، وكأن مصائر الآخرين تمر عبر يديه.

ابتسم الرجل ابتسامة غامضة وقال:

«أنتِ المجنونة! هل تعتقدين أنكِ تستطيعين جمع هذا المبلغ بهذه السهولة؟ هذا عمل... يسمونه «بنس». هل تعرفين ما هو البنس؟»
لم تكن كلماته شرحاً لمفهوم فقط؛ كانت تكشف طريقة كاملة في النظر إلى الأشياء. سقطت العبارة داخلها كحجر ألقي في مياه ساكنة، وراحت دوائرها تتسع في ذهنها:

«بنس... بنس... بنس.»

كان يريد أن يقول لها إن كل شيء يمكن أن يتحول إلى تجارة؛ حتى الفقر، والحاجة، ولحظات الضعف التي يعيشها الإنسان حين تضيق به الحياة. في منطق الخاسر لم تعد هناك مسافة واضحة بين السلعة والسوق، بين المال والمعاناة، بين الربح والخسارة. كان يرى العالم من خلال ميزان المصالح والأرقام، حيث تتراجع المشاعر الإنسانية إلى الخلف أمام منطق السيطرة والكسب.

ارتبكت ريمًا. لم يكن ارتباكًا عابرًا، وإنما إحساسًا عميقًا بأن الأرض التي تقف عليها بدأت تفقد ثباتها. كانت الصور التي حملتها طويلاً عن الفقر والتسول والإنسانية تشقق أمام واقع لم يخطر لها أنها ستراه يوماً.

كانت تقف أمام رجل لا تعرف عنه شيئاً، لكنه كشف لها جانباً خفياً من الظاهرة التي قضت وقتاً طويلاً في دراستها. أدركت أن التسول قد لا يكون دائماً فعلاً فردياً ينشأ من الحاجة وحدها؛ ففي بعض الحالات قد يدخل ضمن شبكة أكثر تعقيداً، لها قواعدها، وأدوارها، وأشخاص يملكون القدرة على رسم حدودها.

حاولت أن تبحث عن كلمات ترد بها، لكنها لم تجدها. شعرت بأن صوتها اختبأ في مكان بعيد داخلها، وأن التفكير نفسه أصبح يحتاج إلى جهد لا تملكه في تلك اللحظة. كانت عينا الرجل تخترقان مظهرها المتنكر، تتجاوزان العباءة والنقاب، وكأنهما تحاولان الوصول إلى شيء أعمق من الصورة التي صنعتها. لم تكن تعرف إن كان قد اقترب من حقيقتها أم أنه كان يرى فيها مجرد امرأة جديدة دخلت إلى عالمه. كانت تدرك أن هذه اللحظة هي أكثر لحظات تجربتها حساسية. كلمة واحدة في غير مكانها قد تكشف ما تخفيه، وحركة صغيرة غير محسوبة قد تحول مهمتها الصحفية إلى مأزق حقيقي. لم تعد تقف أمام موقف يمكن تسجيله وتحليله من الخارج؛ لقد أصبحت داخل المشهد نفسه، داخل عالم له قوانينه الخاصة، عالم قد لا يمنح من يدخله فرصة سهلة للعودة.

«لا أعرف... ماذا تقصد بـ«البزنس»؟»

قالت ربما ذلك بصوت منخفض ومتردد، وكأنها تنتزع الكلمات من أعماقها بصعوبة.

لم يكن سؤالها بحثاً عن معنى الكلمة فقط؛ كان محاولة لشراء بعض الوقت، لتهدئة ارتباكها، ولتفكيك الواقع الجديد الذي ظهر أمامها فجأة. كانت تحاول أن تفهم قواعد هذه اللعبة، وأن تعرف ما الذي يريده هذا الرجل، وما الذي تخفيه عباراته البسيطة خلف ظاهرها. نظر إليها الرجل للحظة، ثم قال بنبرة حاسمة:

«كلامي واضح وصريح... أقصد أن هناك أموراً تنظم عملية التسول. هناك قواعد يجب الالتزام بها، وتعليمات يجب تنفيذها. عليك أن تخضعي لهذه الأنظمة، وإلا ستواجهين مشاكل كثيرة في حياتك. هل تفهمين ذلك؟»

كانت كلماته تحمل طبقات أكثر مما تقوله ظاهرياً. لم تكن مجرد شرح لقواعد؛ كانت إعلاناً عن وجود سلطة، ورسالة صامتة تقول لها: لقد دخلت إلى عالمي، وعليك أن تعرفي حدوده.

كان ينظر إليها من خلف نظارته السوداء بنظرة يصعب فك رموزها. بدا كأنه يعرف أكثر مما يصرح به، وكأنه يشعر بأن خلف هذه المرأة قصة أخرى لا تريد أن تظهر. اختار أن يتركها في مساحة من القلق، وأن يجعلها تدرك ثقل المكانة التي يعتقد أنه يمتلكها.

ترددت كلماته في رأسها:

«أنظمة وتعليمات... أنظمة وتعليمات.»

شعرت بأنها أمام منظومة كاملة، منظومة لا تترك مساحة كبيرة للعفوية أو الرحمة. لم يعد المتسولون في هذا العالم مجرد أفراد يبحثون عن النجاة في يوم صعب، وإنما بدوا في نظر من يدير هذه الشبكة كأرقام في سجل، ووجوه داخل نظام، ووسائل تتحرك وفق حسابات لا يعرفون تفاصيلها.

«نعم... أفهم ذلك... دعني أفكر في الأمر.»

قالت ربما أخيراً.

حاول صوتها أن يبدو هادئاً ومتزنًا، لكنه لم يستطع إخفاء الخوف المختبئ خلف الكلمات. كانت تحتاج إلى وقت، إلى لحظة تستعيد فيها ترتيب أفكارها، وإلى فرصة لفهم الباب الذي فتح أمامها فجأة. لم تكن تعرف ما الذي ينتظرها خلفه، ولم تكن متأكدة إن كان الرجوع إلى الورا ما يزال سهلاً.

كانت تعرف شيئاً واحداً فقط: أن هذا اللقاء لم يكن مصادفة. فمنذ هذه اللحظة لم تعد تقف خارج الظاهرة تراقبها، وإنما بدأت تخطو داخل عالمها الغامض.

ظل الرجل ينظر إليها طويلاً، كأنه يحاول أن يقرأ ما وراء النقاب، وما وراء الكلمات، وما وراء ذلك الصوت الذي جمع بين الارتجاف ومحاولة الثبات. كان يراقب حركاتها، صمتها، وطريقة وقوفها، وكأنه يبحث عن شيء لم تقله.

ثم، وكأنه قرر أن يمنحها فرصة للتفكير، أو ربما أراد تأجيل المواجهة إلى وقت آخر، قال بصوت أكثر هدوءاً:

«حسناً... فكري بالأمر. لكن لا تتأخري كثيراً... فهذا الحي ليس مكاناً عادياً. هناك عيون تراقب كل شيء. لا تظني أنك تستطيعين التحرك كما تشائين من دون أن يلاحظك أحد.»

لم تكن كلماته نصيحة عابرة؛ حملت في داخلها تحذيراً واضحاً وظلاً من التهديد. كانت رسالته بسيطة وقاسية: أنت دخلت منطقة لا تعرفين قوانينها، وعليك أن تتبهي لكل خطوة تخطيها. ثم استدار الرجل وغادر، تاركاً ريما وحدها في المقهى.

للمرة الأولى منذ دقائق، شعرت بأن الهواء عاد إلى رئتيها، وأن قلبها بدأ يهدأ شيئاً فشيئاً. بقيت تنظر إلى المكان الذي كان يقف فيه، وكأنها تحاول جمع أجزاء اللحظة المبعثرة وفهم ما حدث. من يكون هذا الرجل؟ ماذا يريد منها؟ هل عرف حقيقتها؟ أم أنها مجرد شخص جديد يحاول إدخاله إلى عالمه؟

كانت تشعر بأنها أمام مفترق طرق حقيقي. طريق يعيدها إلى حياتها السابقة؛ إلى الأمان، وإلى هويتها المعروفة، وإلى مكتبها وتقاريرها وموقعها كصحفية تراقب الأحداث من الخارج. وطريق آخر يدفعها إلى مواصلة التوغل في هذا العالم الغامض، عالم لا تعرف قوانينه، وقد يحمل خطراً حقيقياً، لكنه في الوقت نفسه يفتح أمامها أبواباً لفهم جانب من المجتمع لم تره من قبل.

جلست في زاوية المقهى، صامتة، وكأن المرأة التي دخلت هذا المكان قبل ساعات لم تعد موجودة تماماً. كان في جيبها مال يفوق ما توقعت أن تجمععه، غير أن ما حملته داخلها كان أثقل من الأوراق النقدية بكثير: معرفة جديدة، معرفة لا تمنح الطمأنينة دائماً، لكنها تفتح العينين على ما كان مختبئاً في الظل.

اكتشفت أن العالم لا يقدم نفسه كما يبدو في اللحظة الأولى، وأن خلف المشاهد اليومية البسيطة طبقات من العلاقات والقوى والمصالح التي لا تظهر لمن يكتفي بالنظر من بعيد. أدركت أن الفقر قد يتجاوز صورة الإنسان الجالس على الرصيف، اليد الممتدة، والنظرة المنتظرة. أحياناً يصبح جزءاً من بنية أكثر تعقيداً؛ بنية لها من يديرها، ومن ينتفع منها، ومن يحمل عبئها بصمت.

عادت أفكارها إلى أولئك المتسولين الذين اعتادت رؤيتهم في مجمع الباصات. الوجوه التي كانت تمر أمامها كل يوم، والأيدي التي كانت تفسرها سابقاً باعتبارها انعكاساً للحاجة وحدها. أما الآن، فقد بدأت ترى خلف تلك الأيدي أسئلة أخرى.

كم واحداً منهم يعرف حقيقة العالم الذي يعيش داخله؟ كم واحداً اختار هذا الطريق فعلاً؟ وكم واحداً وجد نفسه عالقاً فيه قبل أن يدرك أنه لم يعد يملك طريقاً آخر؟ هل هم جزء من المنظومة أم أسرى لها؟ هل يتحركون داخلها بإرادتهم أم تحت وطأة ظروف لم يختاروها؟

كانت الأسئلة تتكاثر في ذهنها، بينما بقيت الإجابات بعيدة، كأنها تختبئ في مكان لا تصل إليه الكلمات بسهولة.

ثم عادت إلى نفسها.

إلى ريما التي تجلس الآن في هذا المقهى، تحمل في حقيبتها مالاً ربما يفوق ما كانت تحصل عليه في بعض أيام عملها الصحفي، وتشعر في الوقت نفسه بأنها فقدت شيئاً لا يمكن تعويضه.

لقد فقدت بساطة النظر إلى العالم.

كانت تعتقد أن الصورة واضحة: فقراء وأغنياء، محتاجون ومانحون، ضحايا ومساعدون. كانت تظن أن الحدود بين هذه المواقع ثابتة، وأن الإنسان يستطيع دائماً أن يعرف أين يقف كل طرف. غير أن التجربة كشفت لها أن الواقع أكثر تشابكاً من ذلك بكثير؛ فالخير قد يحمل أسئلة خفية، والمعاناة قد تتحول إلى مساحة يستفيد منها من يعرفون كيف يستثمرون ضعف الآخرين.

كان وعيها الجديد يشبه هدية ثقيلة. منحها قدرة على رؤية ما وراء الظاهر، وحرمها في الوقت نفسه راحة العيش داخل الإجابات السهلة. نهضت ريما من مكانها، وتركت بعض النقود على الطاولة، ثم خرجت من المقهى بخطوات بطيئة. كانت تشعر بأنها عبرت إلى مرحلة أخرى من تجربتها؛ مرحلة لم تعد فيها مجرد صحفية تراقب ظاهرة اجتماعية من الخارج، وإنما إنسانة وجدت نفسها داخل السؤال ذاته.

كانت تعرف أن الطريق القادم لن يكون بسيطاً. ستظهر أسئلة جديدة، ومواقف أكثر تعقيداً، وربما مخاطر لم تكن مستعدة لها. ومع ذلك، كانت تدرك أن شيئاً ما قد تغير في داخلها، وأن العودة إلى رؤيتها القديمة للعالم أصبحت أمراً مستحيلاً.

غادرت ربما مجمع الباصات وكأنها تخرج من حلم ثقيل أو تستيقظ من كابوس لم تكن تتخيل أنه يمكن أن يكون حقيقياً. كانت خطواتها بطيئة، وكأن قدميها تحملان أكثر من جسدها؛ تحملان الأصوات التي سمعتها، والوجوه التي قابلتها، والحقائق التي ظهرت أمامها خلال ساعات قليلة.

كان الكيس البلاستيكي في يدها يبدو كأنه اختصر الرحلة كلها. في البداية رآته دليلاً على كرم الغرباء وتعاطفهم، ثم تحول إلى شاهد على عالم آخر؛ عالم تختلط فيه الحاجة بالمصلحة، والضعف بالقوة، والفقر بحسابات لم تكن تراها.

كانت صورة الرجل الغامض لا تزال معلقة في ذاكرتها.

بدلته الأنيقة، ربطة عنقه الحمراء التي بدت كأنها أثر جرح صغير فوق قميصه الأبيض، حذاؤه اللامع الذي التقط ضوء الشمس... كل تفصيل فيه كان يزيد السؤال غموضاً.

كيف يمكن لرجل بهذا الحضور، بهذا الاهتمام بمظهره، أن يكون جزءاً من عالم الفقراء والمتسولين؟ كيف يمكن لشخص يبدو أقرب إلى مجالس رجال الأعمال أن يدير شبكة من المحتاجين، يجمع أموالهم، ويعيد توزيعها كما لو كان يدير مؤسسة لها موظفون ورواتب؟ كان التناقض قاسياً إلى درجة جعلها تشعر بأنها دخلت مشهداً روائياً يصعب تصديقه، مع أنها كانت تعيشه بكل تفاصيله.

وبينما كانت تتعد عن مجمع الباصات، أخذت تنظر إلى المدينة بعينين مختلفتين. السيارات الفاخرة تمر بجانبها، الأبراج ترتفع في

الأفق، والناس يعبرون الشوارع مسرعين، وكل شخص يحمل داخله حكاية لا يعرفها أحد.

تساءلت: كم من هؤلاء يعرفون بوجود هذا العالم الموازي؟ كم منهم يمرون بجانب المتسولين يومياً، فيرون المشهد الخارجي فقط، دون أن يخطر لهم أن خلفه شبكة من العلاقات والقواعد والمصالح؟ شعرت بأنها أصبحت تحمل معرفة لا يملكها كثيرون؛ معرفة جعلتها تبحث عن الأشياء التي لا تظهر في الصورة الأولى، وعن الخيوط الدقيقة التي تربط بين ما يبدو منفصلاً.

كانت عبارة الرجل لا تزال تدور في رأسها:

«هذا شغل... يسمونه بزنس... أتعرفين ما هو البزنس؟»

لم تكن الجملة بالنسبة لها مجرد استخدام لكلمة اقتصادية، وإنما كانت نافذة على طريقة تفكير كاملة؛ طريقة ترى أن كل شيء يمكن أن يدخل في دائرة الحساب، حتى الحاجة الإنسانية، وحتى لحظة الضعف التي يمر بها الإنسان.

شعرت ربما بثقل في صدرها. لم يكن أكثر ما أربكها وجود الاستغلال وحده، وإنما اكتشاف أن العالم أكثر تعقيداً من الصورة التي كانت تحملها عنه. دخلت التجربة وهي تبحث عن قصة حول الفقر، فوجدت نفسها أمام قصة أوسع؛ قصة عن السلطة، والمال، والحاجة، وعن قدرة الإنسان على تحويل ألم إنسان آخر إلى مصدر نفوذ ومصلحة.

أدركت أن التسول ليس مجرد يد تمتد على رصيف، وإنما عالم له طبقاته ومساراته الخفية وصراعاته التي لا تظهر إلا لمن يقترب كثيراً. وفي تلك اللحظة ظهر في ذهنها سؤال جديد، سؤال لم يكن حاضراً قبل هذا اليوم:

هل يعرف المتسولون أنهم جزء من هذا النظام؟ هل يشعرون بأن هناك من يستفيد من حاجتهم؟ هل يدركون أن تعبهم وخوفهم وانتظارهم قد يتحول إلى مصدر ربح لشخص آخر؟ أم أنهم يعيشون داخل حكاية مختلفة، حكاية يظنون فيها أنهم اختاروا الطريق، بينما ربما كان الطريق هو الذي اختارهم منذ البداية؟

تخيلت وجوههم التي عبرت أمامها في محطات الباصات؛ تلك الملامح التي حملت آثار أيام طويلة من التعب، وذلك الصمت الذي استقر في العيون كأنه اعتاد الانتظار. تذكرت النظرات القصيرة التي التقت بها، والأيدي التي امتدت نحوها، لا تطلب مالاً فقط، وإنما تطلب اعترافاً بأنها ما زالت مرئية في هذا العالم.

راحت تسأل نفسها: كم واحداً منهم يعرف الصورة كاملة؟ كم واحداً اختار أن يعيش داخل الجزء الذي يعرفه فقط، لأن الحقيقة أحياناً تكون عبئاً أثقل من الاحتمال؟ كم واحداً وقف أمام باب الخروج طويلاً، ثم اكتشف أن الباب لا يفتح، أو أن الطريق خلفه لا يقود إلى مكان آخر؟

وصلت ربما إلى شارع هادئ بعيد عن ضجيج المدينة. ابتعدت أصوات السيارات، وخفت حركة الناس، وتراجعت تلك النظرات

التي ظلت ترافقها طوال اليوم كأنها تبحث عن شيء تخفيه. توقفت للحظة، ورفعت عينيها نحو السماء.

كانت الغيوم البيضاء تتحرك ببطء، في عالم يبدو منفصلاً عن الأرض. هناك في الأعلى لم تكن توجد وجوه متعبة، ولا أيادٍ ممدودة، ولا أسئلة عن من يملك ومن يحتاج. بدت السماء هادئة إلى درجة جعلتها تفكر في المسافة الغريبة بين هذا السكون البعيد والفوضى التي يعيشها البشر تحتها.

أخذت نفساً عميقاً. احتاجت إلى لحظة لا تسمع فيها سوى صوتها الداخلي، إلى مساحة صغيرة تستعيد فيها ترتيب الأشياء التي انهارت داخلها خلال ساعات قليلة. غير أنها كانت تعرف أن ما حدث لم يعد حادثة يمكن وضعها جانباً. الكلمات التي سمعتها، والوجوه التي رأتها، والرجل الذي كشف لها جانباً لم تكن تعرفه، كلها أصبحت جزءاً من ذاكرتها.

تذكرت والدتها.

تلك المرأة التي علمتها منذ طفولتها أن قيمة الإنسان لا تسكن فيما يملك، وإنما في الطريقة التي يرى بها الآخرين. كانت تقول لها دائماً إن النجاح لا يكتمل حين يصعد الإنسان وحده، وإنما حين يلتفت وهو يصعد ليرى من بقي خلفه.

سألت نفسها: ماذا كانت والدتها ستفعل لو وقفت في مكانها؟ هل كانت ستواجه الرجل؟ هل كانت ستبحث عن طريق يصل إلى هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم داخل شبكة لا يفهمون حدودها؟

كانت تشعر أن والدتها كانت ستملك جواباً لا تملكه هي. جواباً لم يأت من الكتب أو التقارير، وإنما من سنوات طويلة من الاحتكاك بالحياة، من الخسارات الصغيرة، ومن القدرة على رؤية الإنسان خلف الخطأ، والضعف خلف القسوة.

أما هي، فكانت تشعر بأنها فقدت شيئاً يشبه البوصلة. لم تعد تعرف أين تقف تماماً، ولا بأي عين تنظر إلى ما رأته. احتاجت إلى وقت، إلى مسافة، إلى هدوء يسمح لها بأن تفهم العالم الجديد الذي ظهر أمامها. وقفت في منتصف الشارع الصامت، وأدركت أن المرأة التي خرجت من بيتها في الصباح لم تعد هي المرأة نفسها التي تقف الآن. لم يتغير العالم في ساعات قليلة، وإنما تغير المكان الذي تنظر منه إليه.

دخلت منطقة لم تكن تعرف أنها موجودة. منطقة جعلتها تعيد النظر في أفكار كثيرة حملتها طويلاً. لم يعد الفقر في نظرها مجرد غياب للمال، وإنما بدا أحياناً كفقْدان لمساحة الإنسان في الاختيار، وكسِرٍ للعلاقة بين الشخص وحرّيته، وانطفاءٍ تدريجيٍّ للشعور بأنه قادر على التحكم بمصيره.

لم تعد ريماً مجرد صحفية تبحث عن مادة تكتبها. أصبحت داخل السؤال نفسه. لم تعد تقف خارج المشهد وهي تحاول تفسيره، وإنما وجدت نفسها جزءاً منه.

بدأت تدرك أن الواقع لا يأتي دائماً في صور واضحة. فالحدود بين الضحية ومن يستغلها قد تتداخل، وبين الحاجة والاختيار قد توجد

مسافات لا يراها من يقف بعيداً. هناك مناطق رمادية تختلط فيها
الرغبات بالقيود، والخوف بالحاجة، والضعف بمحاولات النجاة.

وبينما كانت تقف في صمت الشارع، جاءها صوت داخلي هادئ:
«أنتِ تعرفين الآن... وهذه المعرفة لن تتركك كما كنتِ. ما رأيته
أصبح جزءاً منك. عليك أن تختاري ماذا ستفعلين به.»
شعرت أن الصوت لم يكن اتهاماً، وإنما مسؤولية.

فهي لم تعد قادرة على المرور بجانب المتسولين بالطريقة القديمة.
لم تعد ترى الأيدي الممتدة كحركة واحدة متشابهة، وإنما كحكايات
متفرقة، كأرواح تحمل تاريخاً لا يظهر في اللحظة العابرة. لم تعد ترى
المشهد من زاوية واحدة، وإنما بدأت ترى شبكة كاملة من الظروف
والقوى التي تحيط بالإنسان حين يجد نفسه في الهامش.

كان العالم كما هو. الشوارع نفسها، والوجوه نفسها، والباصات
نفسها. التغيير الوحيد كان في عينيها.

واصلت السير نحو منزلها. كانت بحاجة إلى المكان الذي يمنحها
إحساساً بالأمان؛ إلى غرفتها، إلى مرآتها، إلى اللحظة التي ستقف فيها
أمام انعكاس وجهها وتساءل: من هي المرأة التي بدأت هذا الصباح؟
ومن هي المرأة التي تعود الآن؟

كانت تعرف أن العودة لن تعني محو ما حدث. ستبقى معها
الأصوات، والوجوه، والأسئلة التي ولدت في ذلك اليوم. وستبقى تلك
التجربة مثل علامة صغيرة لا يراها الآخرون، لكنها ستعرف دائماً أنها
موجودة.

لم تكن التجربة سهلة، وربما لم تكن الإجابات التي منحتها كاملة. لكنها فتحت لها باباً لم يكن موجوداً من قبل؛ باباً جعلها ترى الإنسان خلف الصورة، والحكاية خلف الرقم، والوجه خلف القناع. ومنذ تلك اللحظة، لم تعد تنظر إلى العالم بحثاً عن قصة فقط، وإنما بحثاً عن الإنسان الذي تختبئ القصة داخله.

كانت ربما تمشي في الشارع، لكنها لم تكن تشعر بقدميها تلامسان الأرض. بدا لها أنها تطفو فوق الواقع، فوق كل ما عرفته سابقاً، فوق كل التصورات التي كانت تمنحها شعوراً زائفاً باليقين. كانت كلمات الرجل الغامض لا تزال تتردد في رأسها كجرس لا يتوقف:

«هذا شغل... يسمونه بزنس.»

كانت العبارة تهبط في أعماقها ببطء، لا لأنها تحمل معنى جديداً فقط، وإنما لأنها فتحت أمامها طريقة أخرى للنظر إلى الأشياء. شعرت أنها تهز الأساسات التي بنت عليها فهمها للعالم، وتدفعها إلى مواجهة أسئلة ظلت بعيدة عنها زمناً طويلاً.

كانت تمشي دون وجهة محددة. لم تكن الشوارع هي التي تقودها، وإنما شيء آخر في داخلها كان يتحرك نحو أماكن لم تزرها من قبل؛ نحو طبقات خفية من ذاتها، نحو أسئلة ظلت تؤجل مواجهتها وكأن التأجيل يمكن أن يلغي وجودها.

«معقول أن يكون التسول بزنس؟»

همست بالسؤال لنفسها، كأنها تخشى أن يسمعه أحد فيكتسب وجوداً خارج رأسها. لم تكن تخاف من السؤال وحده، وإنما من الاحتمال الكامن خلفه؛ احتمال أن تكون الإجابة أفسى من قدرتها على الاحتمال.

خرجت الكلمات من شفيتها خفيفة، كأنها مجرد هواء عابر، لكنها حملت معها ثقلاً لا يُرى. كانت تحمل ثقل المعرفة الجديدة، ذلك النوع من المعرفة الذي يغير شكل الأشياء بعد أن نراها، ويجعل العودة إلى النظرة الأولى أمراً مستحيلاً.

كيف يمكن لعالم عاشته طوال سنوات أن يخفي كل هذه الطبقات؟ كيف يمكن ليد تمتد طلباً للمساعدة أن تكون جزءاً من شبكة أكبر من مجرد الحاجة؟ كيف يمكن لإنسان يضع قطعة نقدية في يد غريب بدافع الرحمة أن يجد نفسه، دون أن يعرف، داخل دائرة يستفيد منها شخص آخر يجلس بعيداً، خلف مكتب أو مقود سيارة فاخرة؟

كان السؤال يؤلمها، لكنه حمل في داخله بداية طريق آخر. فبعض الحقائق لا تأتي لتمنح الإنسان الطمأنينة، وإنما لتعيد ترتيب الأشياء في داخله، وتجعله يرى العالم بعيون مختلفة. توقفت ربما فجأة.

لم يكن هناك شيء في الطريق يستحق التوقف. لا صوت مرتفع، ولا حركة غير مألوفة. ومع ذلك شعرت كأن قوة خفية أمسكت بها من كتفها. جاءها صوت داخلي هادئ:

«انظري... انظري إلى تلك السيارة.»

رفعت عينيها.

كانت هناك سيارة مرسيدس سوداء، لامعة، متوقفة على الرصيف المقابل. بدت كأنها خرجت من عالم آخر؛ عالم الزجاج المصقول، والمقاعد الوثيرة، والهدوء الذي تصنعه المسافات بين الإنسان والآخرين.

وقفت السيارة في المكان نفسه الذي عبرت فيه الأقدام المتعبة، حيث الأكواب البلاستيكية، والأيدي المنتظرة، والوجوه التي تحمل تعب الأيام.

كان المشهد بسيطاً في ظاهره، لكنه بالنسبة إلى ريماء حمل معنى أكبر من مجرد سيارة متوقفة على جانب الطريق. بدا لها أن التناقض الذي عاش داخلها منذ الصباح أخذ شكلاً مرئياً أمامها؛ لمعان الخارج في مواجهة ما يختبئ تحته، وأناقة المدينة في مواجهة الحكايات التي لا يراها أحد.

لم تكن السيارة تتكلم، ومع ذلك شعرت أنها تحمل رسالة صامتة. لم تعد مجرد وسيلة للانتقال، وإنما أصبحت علامة على عالم آخر؛ عالم تُقاس فيه الأشياء بمنطق مختلف، حيث يمكن للحاجة الإنسانية أن تدخل في حسابات الربح، وحيث يمكن للضعف أن يصبح رقماً في دفتر لا يعرف شيئاً عن الألم الذي يقف خلفه.

عادت كلمات الرجل الغامض إلى ذاكرتها:

«هذا شغل... يسمونه بزنس.»

وتذكرت حديثه عن القواعد، والتنظيم، والحدود التي لا تظهر لمن يقف خارجها.

بدت لها السيارة وكأنها تكمل الجملة التي بدأها الرجل. لم تكن الإجابة مكتوبة عليها، لكنها جعلتها ترى شيئاً لم تكن تريد أن تراه: أن بعض الذين يقفون خلف هذه الدائرة لا يعيشون في المكان نفسه الذي يعيش فيه من يحملون عبئها. هناك مسافة بين الرصيف ومن يراقبه، بين اليد التي تمتد واليد التي تحسب.

شعرت أن السيارة لا تواجهها وحدها، وإنما تواجه الصورة القديمة التي كانت تحملها عن الفقر، وعن المحتاجين، وعن المسافة بين من يعطي ومن يأخذ.

وفجأة انفتح باب السيارة.

نزل رجل لم يكن هو الرجل الغامض، لكنه حمل شيئاً من حضوره؛ الأناقة نفسها، والثقة نفسها، وذلك الهدوء الذي لا يحتاج إلى إثبات وجوده.

كان يرتدي بدلة زرقاء داكنة، وقميصاً أبيض ناصعاً، وربطة عنق رمادية، وحذاء يلتقط ضوء الشمس. سار بخطوات ثابتة، وكأن الطريق يعرفه قبل أن يمر به، وكأن المدينة تفسح له مساحة لا تمنحها للجميع. مر بجانب ريما.

نظر إليها للحظة.

لم تكن في عينيه دهشة، ولا شفقة، ولا فضول. كانت نظرة عابرة، باردة، تشبه نظرة شخص يرى مشهداً اعتاد عليه كثيراً؛ جزءاً من الصورة العامة للشارع، تفصيلاً صغيراً لا يحتاج إلى التوقف عنده. وفي تلك اللحظة شعرت ربما أن المسافة بينهما لم تكن مسافة خطوات قليلة فقط.

كانت مسافة عالمين.

ثم تابع طريقه.

وكانها لم تكن موجودة.

وقفت ربما تراقبه وهو يتعد، ثم عادت بعينها إلى السيارة الفاخرة التي تركها خلفه، ثم إلى نفسها. كانت ترى التناقض كاملاً أمامها: رجل يخرج من سيارة تساوي ثروة، وامرأة تقف على الرصيف بعباءة سوداء ونقاب يخفي وجهها، تحمل كيساً بلاستيكيًا ممتلئًا بالنقود التي جمعتها من الغرباء.

نقود ظنت في البداية أنها دليل على رحمة الناس.

لكنها الآن أصبحت تراها بطريقة مختلفة.

ربما كانت دليلاً على نظام أكبر منها.

شعرت وكأنها تقف داخل مشهد سينمائي يستحيل تصديقه، مع أنها لم تكن تراقبه من مقعد بعيد. كانت في قلبه، تتحرك بين تفاصيله، تحمل ثقله في جسدها، في أنفاسها، وفي ذلك الاضطراب الخفي الذي كان يطرق قلبها بلا توقف.

تساءلت:

كيف يمكن لعالم واحد أن يحتمل هذا التناقض كله؟ كيف يمكن لسيارة فاخرة أن تتوقف عند الرصيف نفسه الذي تجلس عليه الأيدي الممتدة طلباً للرحمة؟ كيف يمكن للمكان ذاته أن يحتضن رجلاً يرتدي أناقته كدرع، وامرأة تخفي هشاشتها خلف قطعة قماش سوداء؟ كيف يولد كل هذا البذخ في جهة، وكل هذا الاحتياج في جهة أخرى، داخل المدينة نفسها؟

كانت الأسئلة تتدافع داخلها كأنها تبحث عن مخرج.

هل يعرف أولئك الذين يضعون نقودهم في أكواب المتسولين الطريق الذي تسلكه تلك النقود بعد أن تغادر أيديهم؟ هل يدركون أن لحظة الرحمة التي يعيشونها قد تدخل، من حيث لا يشعرون، في مسار آخر لا يشبه نواياهم الأولى؟ هل يمكن لقطعة نقدية صغيرة تُمنح بدافع التعاطف أن تنتهي في مكان لا علاقة له بالحاجة التي استدعت منحها؟ ثم جاء سؤال أكثر قسوة:

هل تكفي النية الطيبة وحدها؟ أم أن للتائج صوتاً يجب أن يُسمع أيضاً؟ هل يبقى العطاء نقياً حين يصبح جزءاً من دائرة تعيد إنتاج الألم الذي حاول صاحبه تخفيفه؟

لم تجد ريما جواباً. كانت الأسئلة تتكاثر كأبواب تفتح على أبواب أخرى.

شعرت بأنها أمام متاهة لا تخلص التسول وحده، وإنما تمتد إلى معنى الخير نفسه، وإلى حدود المسؤولية التي يحملها الإنسان حين

يمد يده بالمساعدة. أين تنتهي الرحمة؟ وأين يبدأ الاستغلال؟ ومتى تتحول المساعدة إلى شيء آخر لا يشبه صورتها الأولى؟ كانت تلك البساطة التي عاشت بها طويلاً تتساقط بهدوء.

لم تعد ترى العالم بخطوط مستقيمة تفصل الأشياء عن بعضها. لم تعد قادرة على وضع الخير في جهة والشر في جهة أخرى. كان هناك فضاء واسع بينهما؛ مساحة تختلط فيها النيات بالنتائج، والضعف بالقوة، والرغبة في الإنقاذ بالرغبة في السيطرة.

تذكرت ربما الحكايات التي قرأتها عن شبكات التسول، عن أطفال دُفعوا إلى الشوارع، وعن أشخاص تحولت حاجتهم إلى فرصة للآخرين، وعن وجوه الفقر التي أصبحت مصدر دخل لمن يعرفون كيف يستثمرونها.

في السابق، كانت تضع تلك القصص في مكان بعيد من ذهنها؛ حوادث نادرة، استثناءات لا تمثل القاعدة. أما الآن، فقد أصبح الاستثناء واقفاً أمامها. له صوت، وله نظرة، وله سيارة فاخرة تتوقف عند حافة الرصيف.

لم تعد القصة كلمات في تقرير صحفي. أصبحت واقعاً يمشي أمامها، واقعاً يكشف عن نفسه دون أن يطلب الإذن.

كان الرجل الغامض يتحدث عن الأمر بهدوء غريب. لم يكن يبدو كمن يخفي سرّاً، وإنما كمن يشرح نظاماً يعرفه جيداً، نظاماً له حساباته، وأدواره، وأبوابه المغلقة.

عندها بدأت ربما تفهم أن الاستغلال لا يأتي دائماً في صورة فعل منفرد يختفي في الظلام. أحياناً يتخذ شكلاً أكثر تعقيداً؛ شبكة تمتد بين الحاجة والرغبة، بين من يبحث عن النجاة ومن يعرف كيف يحول تلك النجاة إلى منفعة خاصة.

ورأت للمرة الأولى أن الفقر قد لا يكون نهاية الطريق فقط، فقد يصبح أحياناً الطريق نفسه الذي يسير عليه آخرون نحو غاياتهم. عادت أفكارها إلى المتسولين الذين رأتهم في الباصات؛ إلى الوجوه المتعبة، والعيون التي تحمل حكايات لا تُروى، والأيدي التي امتدت إليها في صمت.

تساءلت:

هل يعرفون حقيقة ما يجري؟ هل يدركون أنهم جزء من منظومة أكبر منهم؟ أم أنهم يعيشون كما يعيش الإنسان حين تضيق به الخيارات، فيتمسك بأي طريق يقيه على قيد الحياة؟

تخيلت حياتهم اليومية؛ خوفهم من الغد، قلقهم من لقمة العيش، برد الشتاء، نظرات الناس، وأسئلة أطفالهم الذين قد يسألونهم ذات يوم: لماذا لا نملك بيتاً مثل الآخرين؟

للمرة الأولى شعرت ربما بأنها اقتربت منهم حقاً.

فهي جلست على الرصيف مثلهم، ومدت يدها مثلهم، وانتظرت نظرة رحمة أو قطعة نقدية من الغرباء مثلهم.

لكنها كانت تعرف الفرق.

هي ستغادر هذا العالم.

ستخلع العباءة والنقاب، وستعود إلى بيتها، إلى عملها، إلى حياتها السابقة.

أما هم، فقد لا يكون لديهم عالم آخر يعودون إليه.

وهنا شعرت ربما بأن جسدها بلغ أقصى حدود احتماله، وأن روحها أصبحت كقوس مشدود على وشك الانكسار.

لقد عاشت في ساعات قليلة ما لم تعيشه في سنوات؛ وقفت على الأرصفة، وجلست في الباصات، ومدت يدها للغرباء، وتذوقت معنى الحاجة والرفض والانتظار، وسمعت كلمات الرجل التي قلبت تصوراتها، ورأت السيارة الفاخرة التي اختزلت أمامها كل تناقضات العالم.

لكن الأثقل من كل ذلك كان سؤالاً آخر:

من أصبحت الآن؟

كانت تشعر بأنها فقدت المسافة التي كانت تفصلها عن الآخرين. لم تعد الصحفية التي تنظر إلى الفقر من موقع المراقب، وإنما أصبحت واقفة في قلب تجربته، تحمل شيئاً من ثقله، وتصغي إلى صمته.

وللحظة، بدا لها أنها غريبة عن نفسها؛ كأن الخيط الذي كان يصلها بريما القديمة قد انقطع. تلك المرأة التي كانت ترى العالم بوضوح أكبر، وتظن أن المعرفة تمنح الإنسان قدرة على فهم الأشياء قبل أن

يخوضها، لم تعد تعرف أين تقف الآن، ولا أي نسخة منها بقيت بعد هذه الرحلة.

كانت تقف في منتصف الشارع، ترفع عينيها نحو السماء التي بدأت تذوب في ألوان الغروب، بينما كانت الوجوه تمر من حولها دون أن تمنحها أكثر من نظرة عابرة. بدت كأنها شخص غير مرئي، امرأة تعبر المدينة وهي تحمل عالماً كاملاً لا يعرفه أحد. نظرت إلى نفسها.

إلى العباءة السوداء التي غطت جسدها، وإلى النقاب الذي أخفى ملامحها، وإلى الكيس البلاستيكي الذي استقر في يدها، محملاً بالنقود التي جمعتها من الغرباء. كان الكيس خفيفاً، مع أن ما بداخله كان أثقل من مجرد أوراق وعملات. كان يحمل ساعات طويلة من الوقوف، ونظرات لا تُنسى، وأسئلة لم تعد تعرف كيف تعيدها إلى مكانها الأول. في تلك اللحظة، شعرت بأنها لم تعد ريما الصحفية، ولم تعد المرأة التي ارتدت شخصية مؤقتة لتدخل عالماً غريباً عنها. كانت تقف في منطقة وسطى، بين اسمين، بين صورتين، بين حياتين. لم تعد تعرف أين ينتهي القناع الذي صنعه لهذه التجربة، وأين تبدأ المرأة التي كانت قبل أن ترتديه.

شعرت بأنها ضاعت في متاهة لم تكن تتوقع الوصول إليها. بدأت الرحلة كبحت مهني، كفضول يريد الاقتراب من ظاهرة اجتماعية، كمحاولة لفهم حياة الآخرين من الداخل. ثم تحولت شيئاً

فشيئاً إلى رحلة أخرى؛ رحلة نحو مناطق أعمق في الإنسان، نحو زوايا في داخلها لم تكن تعرف أنها موجودة.

دخلت التجربة وهي تحمل أسئلة قليلة، وخرجت منها وهي تحمل أسئلة لا تجد لها نهاية.

في تلك اللحظة، أدركت ربما أنها لم تعد قادرة على الاستمرار في العيش بين وجهين. لم تعد تحتمل أن تواصل ارتداء شخصية ليست لها، وأن تبقى معلقة بين ما تشعر به في داخلها وما تقدمه للعالم من حولها.

كانت بحاجة إلى العودة إلى البيت.

ليس لأنه مجرد مكان تنتمي إليه، وإنما لأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن يمنحها فرصة لاستعادة صوتها الداخلي. كانت بحاجة إلى جدران لا تسألها، وأشياء لا تطلب منها تفسيراً، وصمت لا يحاكمها. كانت بحاجة إلى مساحة تستطيع فيها أن تتوقف عن الأداء، وأن تعود ربما فقط.

كانت تريد غرفتها.

الغرفة التي تعرف كل تفاصيلها؛ الكتب التي تصطف على الرفوف، الصور التي بقيت معلقة على الجدران، والزوايا الصغيرة التي احتفظت بأجزاء من حياتها السابقة. أرادت أن تجلس هناك دون تحليل، دون محاولة لترتيب الفوضى التي اجتاحت عقلها. أرادت فقط أن تتنفس، وأن تتأكد أن الجزء الذي ظنت أنها فقدته ما زال ينتظرها هناك.

وكانت بحاجة إلى المرأة.

المرأة نفسها التي وقفت أمامها قبل بداية التجربة، وهي تسأل عن المرأة التي ستظهر بعد أن ترتدي العباءة والنقاب. هذه المرة لم تكن تريد أن ترى نجاح التنكر، ولا أن تتأكد من قدرتها على لعب الدور. كانت تريد أن تسألها سؤالاً لم تستطع الهروب منه:

«من كنت قبل أن أدخل هذا العالم؟ ومن أصبحت بعد أن خرجت منه؟»

كانت خطواتها نحو البيت بطيئة وثقيلة. لم يكن التعب في جسدها وحده، فقد كان هناك شيء آخر تحمله معها؛ وجوه، وأصوات، ومواقف، ولحظات صغيرة تركت آثاراً أكبر من حجمها. كانت تمشي وكأنها تؤجل لحظة اللقاء مع نفسها.

كانت تعرف أنها لن تعود إلى البيت وحدها.

ستدخل معها الأرصفة ومحطات الباصات، والأيدي التي امتدت طلباً للمساعدة، وكلمات الرجل الغامض، وصورة السيارة الفاخرة التي كشفت لها جانباً لم تكن مستعدة لرؤيته.

وعندما وصلت إلى باب منزلها، توقفت قليلاً.

وضعت يدها على المقبض.

كان شيئاً عادياً، قطعة معدنية صغيرة لا تحمل أي معنى خاص

لمن يراها من الخارج. أما بالنسبة إليها، فقد بدا كأنه فاصلة بين زمنيْن؛
بين امرأة خرجت تبحث عن قصة، وامرأة عادت وهي تحمل قصة
أصبحت جزءاً منها.

فتحت الباب.

دخلت.

وأغلقت خلفها ببطء.

بدا الأمر كأنها تغلق خلفها ضجيج الأرضفة والحافلات والوجوه
المجهولة، وتدخل إلى عالم الجدران والصور والذكريات.

مع ذلك، لم تكن الغرفة التي عادت إليها هي الغرفة التي غادرتها.
كل شيء كان في مكانه.

الكتب على الرفوف، الصور على الجدران، الأثاث الصامت في
زواياه المعتادة.

إلا أن عينيها لم تعودا كما كانتا.

كانت تنظر إلى الأشياء بوعي جديد؛ ووعي ولد من الوقوف في مكان
لا يمنح صاحبه القوة، ومن رؤية المدينة من مستوى آخر، من الإصغاء
إلى الوجوه قبل الكلمات، وإلى الصمت قبل الحكايات.

خلعت العباءة السوداء.

نزعت النقاب عن وجهها.

ثم وقفت أمام المرأة.

طويلاً.

نظرت إلى انعكاسها دون كلمة واحدة.

كان الوجه هو الوجه نفسه.

والملامح هي الملامح نفسها.

ومع ذلك، شعرت بأنها تقف أمام امرأة لم تلتق بها من قبل.

رأت ظلالاً تحت عينيها تحكي عن ليالٍ من التفكير والقلق. رأت
إرهاقاً لم يكن موجوداً من قبل. رأت في نظرتها شيئاً من الحزن، وشيئاً
من الحكمة، وشيئاً من الحيرة.

سألت نفسها:

«هل هذه أنا؟ هل هذه ربما التي كانت تعيش حياتها الهادئة، تكتب
تقاريرها، وتغطي الفعاليات، وتظن أنها تفهم العالم؟ أم أنها امرأة أخرى
ولدت في تلك الأرصفة، بين أصوات الباصات ووجوه الغرباء، امرأة
تعلمت أن الأشياء ليست دائماً كما تبدو؟»

وقفت في صمت الغرفة، بينما كانت الأسئلة تتزاحم داخلها.

ما معنى هذه التجربة؟ هل غيرها أم أنها كشفت لها من كانت دائماً؟
هل اقتربت من الحقيقة أم أنها اكتشفت فقط أن الحقيقة أكثر تعقيداً مما
كانت تظن؟

كانت تشعر بأنها أصبحت أكثر وعياً، لكن هذا الوعي لم يمنحها
الراحة. كان وعياً ثقيلاً؛ لأنه جعلها ترى ما وراء السطح، وتبحث

خلف الكلمات، وتشك في البديهيّات التي كانت تمنحها الطمأنينة.

عادت كلمات الرجل الغامض إلى ذاكرتها:

«هناك نظام... هناك تنظيم... هذا بزنس.»

كانت تتردد في رأسها كأنها مفتاح فتح باباً لم تكن تعرف بوجوده.
باباً يقود إلى أسئلة مؤلمة عن الفقر، والعدالة، والإنسان، وعن الطريقة
التي يمكن أن يتحول بها ضعف الإنسان إلى فرصة يستثمر فيها آخرون.
سمعت صوتاً داخلياً يهمس لها:

«أنت الآن تعرفين... ولا يمكنك أن تنسي.»

أدركت أن هذه المعرفة أصبحت مسؤولية. لم تعد قادرة على
العودة إلى حياتها القديمة وكأن شيئاً لم يحدث. لم تعد قادرة على
المرور بجانب المتسولين في الشوارع بالطريقة نفسها.
لم تعد ترى مجرد فقراء.

كانت ترى بشراً يحملون قصصاً معقدة، وضحايا محتملين لنظام
أكبر منهم، ووجوهاً تعكس أسئلة المجتمع عن القوة والضعف
والعدالة.

لكنها كانت تعرف أيضاً أنها لم تصل إلى الإجابات بعد.

كانت بحاجة إلى الوقت.

إلى التفكير.

إلى إعادة بناء رؤيتها للعالم.

كانت بحاجة إلى أن تفهم ما تؤمن به حقاً، وما القيم التي تريد أن تحملها معها بعد هذه الرحلة.

جلست أمام المرأة، تنظر إلى انعكاسها، وتحاول أن تجد إجابة للسؤال الذي أصبح يطاردها:

«من كنت قبل هذه التجربة؟ ومن أصبحت بعدها؟»

كانت تعرف أن الإجابة قد لا تأتي سريعاً، وربما لا تصل كاملة أبداً. ومع ذلك، بدأت تدرك أن السير نحوها هو جزء من معناها؛ فهناك أسئلة لا تولد كي تُغلق أبوابها بالإجابات، وإنما كي تعيد تشكيل الإنسان الذي يحملها.

وفي تلك اللحظة، فهمت ريمًا حقيقة لم تكن مستعدة لمواجهتها: العودة إلى البيت لا تعني دائماً العودة إلى المكان الذي تركناه. فبعض الرحلات لا تنتهي عند لحظة الوصول، لأنها لا تغير الجدران التي نعود إليها، وإنما تغير الشخص الذي يفتح الباب. لم تكن ريمًا القديمة تنتظرها خلف العتبة.

كانت قد تركتها في مكان ما بين الأرصفة ومحطات الباصات، بين الأيدي الممتدة والنظرات العابرة، ثم عادت بوجهها نفسه، تحمل اسمًا واحدًا، وذاكرة مختلفة.

كانت ولادة لم تخطط لها، ولم تبحث عنها. جاءت إليها مثل عاصفة هادئة؛ لم تهدم كل شيء، لكنها أزاحت الستائر التي كانت تخفي عنها أشياء لم تكن تريد رؤيتها.

للمرة الأولى، وقفت أمام نفسها دون الأقنعة التي اعتادت أن تختبئ خلفها.

جلست ربما على حافة سريرها، وبقيت صامتة للحظات طويلة. كانت الغرفة كما تركتها تمامًا؛ الكتب في أماكنها، الملابس مرتبة، الصور معلقة على الجدران، والأشياء الصغيرة التي اعتادت وجودها ما زالت تحتفظ بمواقعها.

ومع ذلك، لم تشعر بأنها عادت إلى غرفتها.

كان المكان مألوفًا، لكنه لم يعد قريبًا.

بدا كأنه غرفة امرأة أخرى؛ امرأة كانت تعرفها جيدًا ذات يوم، ثم ابتعدت عنها المسافة التي صنعتها تلك الأيام القليلة.

نظرت إلى الكتب التي ملأت سنواتها بالأفكار، وإلى الملابس التي حملت صورتها القديمة، وإلى الصور التي حفظت وجوهاً وذاكرات ظنت أنها ستبقى ثابتة. لكنها الآن كانت تراها كأثار لحياة بعيدة، حياة عاشتها امرأة لم تعرف شيئًا عن برودة الأرض، ولا عن ثقل الانتظار، ولا عن اللحظة التي تصبح فيها اليد الممتدة سؤالاً أكثر منها طلبًا.

شعرت بأنها غريبة في بيتها.

كأنها عادت من مكان لم يظهر على الخرائط، تحمل معرفة جديدة، وتفتقد في الوقت نفسه شيئًا من الطمأنينة التي كانت تسكنها قبل الرحلة.

حتى نفسها بدت لها بعيدة.

كأن المسافة بينها وبين ذاتها أصبحت تحتاج إلى طريق طويل حتى تعبره.

نظرت إلى يديها.

إلى اليدين اللتين امتدتا نحو الغرباء دون كلمات.

إلى اليدين اللتين حملتا العملات المعدنية الباردة، وشعرتا بثقل الانتظار، ولمستا الأوراق النقدية التي وُضعت في الكيس.

إلى اليدين اللتين عرفتا، ولو لأيام قليلة، معنى أن يقف الإنسان في الجهة الأخرى من الحاجة.

تساءلت بصوت داخلي خافت:

«هل هاتان يداي حقاً؟ أم أنني استعرت يدي امرأة أخرى؟ امرأة جلست على الأرصفة، واستمعت إلى أصوات لا يسمعها العابرون، وعرفت شعور العجز بطريقة لم أعرفها من قبل؟»

لم تكن تلك الأيام مجرد تجربة مرت ثم اختفت.

لقد تركت أثراً يشبه العلامة التي لا تُرى، لكنها تغير طريقة النظر.

كانت الأصوات ما تزال حاضرة.

صوت الباصات وهي تتبلع المسافرين وتلفظهم، حركة الأقدام المتعجلة، الهمسات التي تضيع في الزحام، والوجوه العابرة التي تحمل حكايات لا تجد من يصغي إليها.

كانت تسمع صوت المرأة التي حملت طفلها وطلبت المساعدة بصوت يكاد يختفي، وصوت الرجل الذي مرّ بجانبها وألقى كلمات

قاسية، وصوت الطفل الصغير الذي قدم لها قطعة حلوى بعينين لا تعرفان شيئاً عن قسوة العالم، وصوت الرجل العجوز الذي قال لها:
«الله يعينك... الله يرزقك من واسع فضله.»

بقيت هذه الأصوات في داخلها، لا كذكريات منفصلة، وإنما كطبقات متداخلة من تجربة واحدة.

كانت أشبه بموسيقى غريبة لا يعرف الإنسان إن كانت نغمتها حزناً أم رجاء؛ خليطاً من الألم والرحمة، من الحاجة والكرامة، من القسوة والالطف.

لم تعد أصواتاً مرت بها ثم غادرت.

لقد وجدت مكاناً لها داخلها.

أدركت أنها لن تستطيع التخلص منها.

وربما لم تكن تريد ذلك.

فبعض التجارب لا ترحل، لأنها لا تستقر في الذاكرة وحدها، وإنما تنتقل إلى العين التي ننظر بها إلى العالم.

أصبحت تعرف أن الأثر الذي بقي فيها ليس مجرد علامة على ألم مضى، وإنما نافذة انفتحت على مشاهد لم تكن تراها من قبل.

نافذة جعلتها تفهم أن الحياة لا تُقرأ دائماً من سطحها، وأن الأشياء اليومية التي تبدو عابرة قد تخفي وراءها قصصاً كاملة؛ قصصاً عن الصبر، والانكسار، والاستغلال، والعطاء، وعن الإنسان الذي يحاول أن يجد مكاناً له في عالم لا يمنح الجميع المساحة نفسها.

في صمت الغرفة، بدأت تستعيد ما حدث وكأنها تشاهد فيلماً يعرض على شاشة داخلية.

رأت نفسها أمام المرأة قبل التجربة، وهي ترتدي العباءة السوداء وتضع النقاب على وجهها، محاولة أن تخفي ملامحها وتدخل عالمًا لا تعرفه.

رأت نفسها وهي تصعد إلى الباص، وتشد على يديها، ثم تمدها للغرباء وهي تردد:

«من مال الله... من مال الله...»

رأت لحظات الانتظار، ونظرات الناس، وثقل الكيس الذي امتلأ بالنقود، ثم لحظة اللقاء بالرجل الغامض، وكلماته التي قلبت تصورها: «هذا شغل... يسمونه بزنس.»

مرت الصور أمامها كأنها مشاهد مقتطعة من حياة بعيدة. ومع ذلك، كانت تعرف في أعماقها أنها لم تكن حياة امرأة أخرى. تلك المرأة التي جلست على الرصيف كانت هي. تلك اليد التي امتدت في صمت كانت يدها. ذلك الخوف الذي سكنها، وذلك الارتباك الذي رافق خطواتها، وتلك الأسئلة التي لم تجد طريقها إلى الإجابة، كلها أصبحت جزءاً من ملامحها الجديدة.

كانت تشعر بأنها لم تعد الشخص نفسه الذي كان قبل أسابيع. لقد عبرت نهراً لا يمكن للإنسان أن يعبره مرتين بالطريقة نفسها. وصلت إلى ضفة أخرى، ضفة لا تعيد الأشياء إلى ما كانت عليه، حتى لو عاد الجسد إلى المكان الأول.

وفجأة، عاد إلى ذاكرتها رجل رآته في أحد الباصات.

لم يكن يشبه الآخرين.

لم تكن في نظره شفقة، ولم يكن فيها احتقار. كان هناك شيء آخر؛ هدوء شخص يعرف الطريق، شخص رأى في صمتها شيئاً يتجاوز مظهرها، وكأنه قال لها دون كلمات:

«أنا أعرف هذا الطريق... لقد مررت به من قبل.»

لم يحدثها طويلاً.

وضع بعض النقود في كيسها، ثم قال بصوت خافت:

«الله يعينك... أنا أعرف هذا الطريق، لقد مشيته من قبل.»

في ذلك الوقت، مرت كلماته أمامها كجملة عابرة. أما الآن، فقد عادت إليها محملة بمعنى لم تكن قادرة على رؤيته حينها.

كانت تشعر أن الرجل لم يكن يتحدث عن شارع أو رصيف، وإنما عن طريق داخلي يسلكه الإنسان حين يفقد شيئاً من صورته القديمة، حين يكتشف أن الألم لا يغادر دائماً، وإنما يجد لنفسه مكاناً جديداً في الروح.

كان ذلك الرجل يشبه امرأة ظهرت أمامها للحظة.

مرأة لم تعكس وجهها الحالي فقط، وإنما كشفت احتمالاً بعيداً لما يمكن أن تصبحه؛ امرأة عرفت الحاجة، واقتربت من العجز، لمست الانكسار، ثم حملت أثر تلك المعرفة معها أينما ذهبت.

أدركت أنها أصبحت جزءاً من سلسلة طويلة من البشر؛ أولئك الذين عرفوا الفقر والكرامة، والاحتياج والعطاء، والضعف والقوة. أولئك الذين اكتشفوا أن حياة الإنسان لا تُختصر في لحظات النجاح والإنجاز، وإنما تتشكل أيضاً من الشقوق التي تتركها التجارب في داخله.

ثم عادت أفكارها إلى الرجل الغامض.

إلى كلماته عن النظام، والتنظيم، والبنس.

شعرت أن تلك الكلمات لم تكن مجرد معلومات جديدة، وإنما نافذة فُتحت فجأة على عالم لم تكن تراه.

عالم لا يظهر في الصورة الأولى للأشياء، حيث يمكن للفقر أن يحمل وراءه طبقات أخرى من العلاقات والمصالح والقواعد الخفية. لم تعد ترى الرصيف كما رأته من قبل.

فخلف كل يد ممدودة قد يكون هناك تاريخ لا يُحكى، وخلف كل وجه صامت قد توجد حكاية لا يعرفها العابرون. كانت الحقيقة قاسية.

قاسية لأنها جعلتها ترى أن العالم ليس عادلاً كما كانت تتمنى. وأن القوة لا تستخدم دائماً لحماية الضعفاء، وأن الحاجة قد تتحول إلى فرصة لمن يملكون السلطة والقدرة على الاستغلال.

لكنها كانت تعرف أيضاً أن الوعي، مهما كان مؤلماً، لا يمكن التراجع عنه.

فحين يرى الإنسان شيئاً بوضوح، يصبح من الصعب عليه أن يتظاهر بأنه لم يره.

كانت أكثر وعياً، لكنها كانت تحمل في داخلها قلقاً لم تعرفه من قبل. فالمعرفة لم تأت إليها كراحة، وإنما جاءت كنافذة فتحت أمامها فضاءً واسعاً من الأسئلة. جعلتها تنظر إلى العالم بعينين مختلفتين؛ عينين تبحثان خلف الظاهر، وتصغيان إلى ما لا يُقال، وتحاولان قراءة الصمت الذي تختبئ خلفه الحكايات.

ثم ظهرت الأسئلة التي كانت تخشاها أكثر من غيرها:

كيف ستعود إلى حياتها القديمة بعد الآن؟

كيف ستجلس في مكتبها، وتكتب عن أخبار الجامعة والفعاليات الرسمية، وكأن شيئاً لم يتغير؟

كيف ستعبر الشوارع من جديد، وترى المتسولين بالطريقة نفسها التي كانت تراهم بها قبل هذه الرحلة؟

لم تعد قادرة على رؤية وجوه تنتظر المساعدة فقط.

أصبحت ترى خلف كل وجه طبقات لا تظهر بسهولة؛ قصصاً مؤجلة، وخيارات ضيقة، وطرقاً خفية لا يعرف عنها العابرون شيئاً.

كانت الأسئلة تتكاثر داخلها:

هل كانوا أسرى للفقر وحده؟ أم أن هناك قيوداً أخرى لا ترى؟ هل المشكلة في الحاجة نفسها، أم في العالم الذي يسمح للحاجة بأن تصبح مجالاً يستفيد منه آخرون؟

شعرت بأنها تقف أمام متاهة لا جدار لها؛ متاهة تعيد ترتيب كل ما ظنته ثابتاً، وتدفعها إلى مراجعة الأشياء التي اعتادت أن تمنحها إجابات جاهزة.

في تلك الليلة، لم تكن ريمًا تبحث عن إجابة واحدة.

كانت تبحث عن طريقة جديدة للنظر.

وفي تلك اللحظة، سمعت صوتاً يأتي من أعماقها؛ صوتاً هادئاً، كأنه خرج من مكان ظل مغلقاً طوال سنوات:

«أنتِ الآن تعرفين... ولا يمكنكِ أن تنسي. هذه المعرفة أصبحت مسؤولية. وما تفعلينه بها هو الجزء الأصعب.»

بقيت صامتة وهي تستمع إليه.

كان الصوت يشبهها، ومع ذلك بدا كأنه قادم من امرأة أخرى؛ امرأة عادت من مكان بعيد وتحمل معها شيئاً لا يمكن وضعه جانباً.

أدركت أنها لم تعد قادرة على الادعاء بأنها لا تعرف.

لن تستطيع بعد اليوم أن تمر بجانب المتسولين بالنظرة القديمة نفسها؛ تلك النظرة التي تضعهم في إطار واحد، وتحولهم إلى مشهد عابر في مدينة مزدحمة. أصبحت تراهم كأشخاص يحملون حيوات كاملة، بأثقالها وخيالاتها وأحلامها المؤجلة.

رأت فيهم ضحايا للحاجة، وللظروف التي تضيق حول الإنسان، وللأيدي التي تعرف كيف تحول ضعف الآخرين إلى فرصة.

كانت تعرف أنها ستعود إلى عملها الصحفي.

ستكتب عن هذه التجربة.

ستحاول أن تنقل ما رأيته، وما سمعته، وما شعرت به.

لكنها كانت تعرف أيضاً أن الكلمات التي ستكتبها لن تكون الكلمات نفسها.

لن تأتي هذه المرة من خلف مكتب، ولا من صفحات التقارير، ولا من مسافة تمنحها شعور الأمان. ستأتي من مكان آخر.

من تلك الساعات التي وقفت فيها على الرصيف، من اللحظات التي شعرت فيها بثقل اليد حين تمتد، ومن التجربة القصيرة التي جعلتها ترى العالم من الجهة الأخرى.

ستكتب من موقع الإنسان الذي ينتظر.

من موقع من يكتشف أن الفقر لا يسلب الأشياء المادية فقط، وإنما قد يسحب من الإنسان شعوره بأنه قادر على اختيار طريقه، وأن يبقى صاحب صوته، وحارس كرامته، ومتعرفاً إلى نفسه بعيداً عن الصور التي يرسمها الآخرون له.

نهضت من مكانها، واتجهت نحو النافذة. فتحتها ببطء، وتركت الهواء يدخل إلى الغرفة.

كان الهواء يحمل رائحة المدينة؛ رائحة الشوارع التي لا تنام، ورائحة البشر الذين يواصلون رحلاتهم اليومية بحثاً عن لقمة العيش، وعن فرصة صغيرة، وعن لحظة أمل وسط عالم لا يمنح الجميع الفرص نفسها.

نظرت إلى السماء التي كانت تميل إلى الغروب. كانت الألوان تختلط في الأفق، والغيوم تتحرك ببطء، وكأنها لا تكثرث بكل ما يحدث على الأرض؛ بكل الألم، وكل الفقر، وكل الصراعات الخفية التي يعيشها البشر.

شعرت برغبة غريبة في العودة.

العودة إلى الشوارع.

إلى الأرصفة.

إلى ذلك العالم الذي دخلته ولم يعد غريباً عنها.

لم تكن تريد العودة لأنها تحتاج إلى المال، ولا لأنها ما زالت تؤدي دوراً صحفياً. كان هناك شيء آخر يدفعها نحو ذلك العالم؛ خيط خفي امتد بينها وبين الأرصفة، وبين الوجوه التي عبرت أمامها، وبين الأصوات التي بقي صداها في داخلها. لم تكن تريد أن تقطع هذا الخيط، لأنها شعرت أن ما اكتشفته هناك لم يعد موضوعاً تكتبه، وإنما جزءاً من شيء تغير في أعماقها.

كانت تريد أن تبقى قريبة من تلك الحقيقة التي ظهرت لها فجأة، أن تظل تسمع الأصوات التي التصقت بذاكرتها؛ أصوات لم تعد بالنسبة إليها مجرد أصوات حاجة، وإنما أصوات بشر ينتظرون أن يراهم أحد، أن يعترف بوجودهم وسط ضجيج العالم.

أدركت أن رغبتها في العودة لم تكن فضولاً عابراً. كان شيئاً أعمق من ذلك؛ حاجة داخلية إلى البقاء على تماس مع الواقع، إلى ألا تتحول

معرفتها إلى صفحات مغلقة في دفتر، وإلى ألا تعود إلى مقعد المراقب بعد أن وجدت نفسها، ولو للحظات، داخل المشهد نفسه.

في تلك اللحظة فهمت أن العودة إلى البيت لم تكن نهاية الرحلة.

كانت الباب الذي فتح على رحلة أخرى.

رحلة لا تقود إلى الشوارع ومحطات الباصات، وإنما إلى أعماقها هي؛ إلى معنى ما حدث، وإلى السؤال الذي لم تكن تجرؤ على مواجهته من قبل:

كيف يعيش الإنسان بعد أن يرى ما كان مخفياً عنه؟

كيف يحمل معرفة لا تسمح له بالعودة إلى براءته الأولى؟

كيف يحول الألم إلى أثر، والتجربة إلى معنى، والجرح إلى نافذة يرى منها العالم بصورة مختلفة؟

كانت تعرف أن الطريق أمامها طويل. ستحتاج إلى وقت كي تفهم، وإلى كلمات كي تكتب، وإلى شجاعة كي تواجه ما عرفته. ومع ذلك، شعرت بأنها لم تعد الشخص نفسه الذي بدأ الرحلة.

فالحياة لم تعد بالنسبة إليها طريقاً مستقيماً ينتهي عند إجابة نهائية. أصبحت سلسلة من اللقاءات والأسئلة واللحظات التي تترك ندوبها، ثم تعيد تشكيل الإنسان بهدوء، حتى يكتشف في النهاية أنه لم يكن يبحث عن العالم فقط، وإنما كان يبحث عن نفسه داخله.

كانت تعرف أنها ستحمل معها كل شيء.

الوجوه.

الأصوات.

النظرات.

الخوف.

الرحمة.

والأسئلة التي لم تجد لها جواباً.

ستحملها في كتاباتها، وفي حياتها، وفي هويتها الجديدة.

ولم تعد ترى تلك الندبة التي تركتها التجربة باعتبارها علامة ضعف أو ألم فقط. أصبحت تراها دليلاً على أنها عاشت شيئاً حقيقياً، وأنها اقتربت من وجع الآخرين، وأنها خرجت من التجربة بإنسانية أعمق ووعي أكبر.

كانت تعرف أن بعض الجروح لا تُشفى لأنها تختفي، وإنما لأنها تجد مكاناً لها داخل الإنسان، فتتحول مع الوقت إلى جزء من الحكمة التي يحملها معه.

ومع ذلك، لم تنظر ربما إلى ما حدث بوصفه عقاباً.

فالعقاب يحتاج إلى خطيئة، وهي لم ترتكب سوى رغبتها في الفهم. لم تكن تبحث عن أكثر من الحقيقة، لكنها اكتشفت أن الحقيقة لا تأتي دائماً بالهيئة التي نتظرها، وأن بعض الأبواب لا تفتح إلا بعد أن يدفع الإنسان ثمن عبوره إليها.

كان ما حدث لها نوعاً من الكشف.

كشفًا مؤلمًا، وربما ضروريًا.

كان أشبه بلحظة تنزاح فيها الغيوم فجأة، فتظهر سماء لم تكن تعرف أنها موجودة. لكنها لم تكن السماء التي رسمتها مخيلتها؛ لم تكن فضاءً صافيًا بلا قلق، وإنما امتداداً واسعاً من الغيوم والعواصف والأسئلة التي لا تهدأ.

وقفت أمام المرأة، تنظر إلى وجهها الذي تعرفه وتجهله في الوقت نفسه، وسألت نفسها:

«لماذا كان عليّ أن أمر بكل هذا حتى أرى؟»

«ولماذا كان الاقتراب من الألم هو الطريق الوحيد إلى الفهم؟»

ثم عادت إليها صور كل المرات التي مرت فيها بجانب المتسولين في الشوارع. كانت تراهم، أو هكذا ظنت. كانت تنظر إليهم بوصفهم ظاهرة اجتماعية، موضوعاً للتحليل، رقماً في تقرير، وحالة يمكن تفكيك أسبابها الاقتصادية والسياسية.

كانت تظن أنها تعرف.

أما الآن، فقد أدركت أن معرفتها السابقة لم تكن سوى وقوف عند العتبة.

فالفهم الحقيقي لا يولد من المسافة وحدها. إنه يبدأ حين يقترب الإنسان بما يكفي ليرى التفاصيل التي تخفيها النظرة العابرة. لا يأتي من الأرقام وحدها، وإنما من ارتجافة اليد، ومن صمت العين، ومن اللحظة التي يشعر فيها المرء بثقل حكاية لا تخصه وحده.

لم يعد الألم بالنسبة إليها موضوعاً يُكتب عنه، وإنما تجربة تترك أثرها في من يقترب منها. فهناك أشياء لا يمكن للإنسان أن يفهمها من الخارج، مهما قرأ عنها، حتى يجد نفسه ذات يوم واقفاً داخلها، يصغي إلى صداها في أعماقه.

كانت تمتلك سابقاً معرفة نظرية.

أما الآن فقد امتلكت معرفة التجربة.

والمعرفة النظرية تبقى باردة؛ تشبه خريطة لا تمشي عليها. أما المعرفة التي تولد من المعاناة، فهي تغير الإنسان من الداخل، تعيد ترتيب نظره للعالم، وتترك أثراً لا يمحي.

أدركت أن الإنسان لا يصبح أكثر إنسانية حين يعرف الحقائق وحدها، وإنما حين يسمح لهذه الحقائق أن تصل إليه، أن تترك أثراً فيه، وأن تعيد تشكيل نظره إلى الآخرين؛ فلا يعود يراهم موضوعات للدراسة، وإنما أرواحاً تشبهه في ضعفها، وفي خوفها، وفي بحثها الدائم عن نافذة من الأمل.

وعادت إليها كلمات الرجل العجوز في الباص:

«أنت الآن تعرفين... ولا يمكنك أن تنسي.»

كانت العبارة تعود إليها كما يعود صوت بعيد في مكان خالٍ، تتكرر دون أن تفقد قدرتها على إيقاظ شيء عميق داخلها.

لم تعد المعرفة بالنسبة إليها مجرد معلومات جديدة أضافتها إلى أرشيفها الصحفي. لقد أصبحت تحولاً داخلياً، عبئاً أخلاقياً، وعلاقة جديدة بينها وبين العالم.

أصبحت مسؤولة عن كل ما رأته.

عن كل صوت عبر إلى قلبها.

عن كل وجه توقف أمام عينيها للحظات.

عن كل يد امتدت في انتظار أن يعترف بها أحد.

كانت هذه المسؤولية ثقيلة، لكنها حملت معها معنى لم تعرفه من قبل. فقد جعلتها تدرك أنها لم تعد مجرد صحفية تسجل الأحداث، ولا امرأة تعيش في مساحة آمنة تراقب العالم من خلف نافذة بعيدة.

لقد أصبحت شاهدة.

والشهادة، حين تولد من تجربة حقيقية، لا تستطيع أن تبقى ساكنة.

كانت ربما تفكر في التحول الذي حدث داخلها. كيف أصبحت ترى في كل وجه عابر قصة لم تصل بعد إلى الكلمات، وفي كل يد ممدودة تاريخاً من الصبر والانتظار، وفي كل نظرة حزينة أثراً لحكاية لا يعرفها أحد.

لم تعد تنظر إلى الناس كما كانت تفعل سابقاً. لم يعودوا مجرد وجوه تمر في الشوارع، أو أسماء ترد في التقارير، أو حالات يمكن وضعها داخل جداول وتحليلات. بدأت ترى ما وراء الملامح، وتصغي إلى الصمت المختبئ بين الكلمات، وتنتبه إلى التفاصيل الصغيرة التي تكشف ما تخفيه الأرواح.

شعرت بأنها اكتسبت قدرة جديدة على رؤية الإنسان في اكتماله؛ في ضعفه وقوته، في أحلامه وانكساراته، في أسرارته التي يحملها وحيداً ولا يجد لغة ليحكيها.

لم يعد الإنسان بالنسبة إليها صورة ثابتة يمكن اختصارها في موقف أو قرار أو لحظة عابرة. أصبح عالماً قائماً بذاته، يحمل زمناً خاصاً من الذكريات والاختيارات والجروح والظروف التي لا يراها الآخرون. غير أن هذه الرؤية الجديدة لم تأتِ بلا ثمن.

فكلما اتسعت قدرتها على الرؤية، اتسعت معها مساحة الألم. أصبحت تلمح الجروح التي كانت تختبئ خلف المشاهد اليومية، وتشعر بثقل معاناة الآخرين كأنها تقترب من جسدها هي. كان يؤلمها أنها أصبحت تعرف.

فالمعرفة لا تمنح الإنسان دائماً القدرة على الإصلاح. أحياناً تمنحه فقط وعياً أعمق بما لا يستطيع تغييره. كانت تدرك أن العالم يحمل آلاماً أكبر من الكلمات، وأن بعض الجراح لا تستجيب للوعود، وأن بعض المآسي تحتاج إلى أكثر من لحظة تعاطف عابرة.

ومع ذلك، لم ترَ هذا الألم علامة ضعف.

رأته دليلاً على بقاء شيء حي داخل الإنسان.

فالرحمة ليست إحساساً مؤقتاً بالشفقة، وإنما قدرة على أن يحمل المرء جزءاً من وجع الآخرين في داخله، وأن يسمح لحكاياتهم بأن تعيد تشكيل علاقته بالحياة.

أصبحت تدرك أن الإنسانية لا تُقاس بما نعرفه عن الآخرين، وإنما بما نسمح لأنفسنا أن نشعر به تجاههم، وبقدرتنا على رؤية الروح المختبئة خلف الظروف التي تحاصرها.

ومن تلك التجربة خرجت ربما بوعي أقل يقيناً، لكنه أكثر رحمة. كانت قد فقدت كثيراً من الأفكار التي منحتها سابقاً شعوراً بالسيطرة على العالم. كانت هناك يقينيات قديمة جعلت الأشياء تبدو أكثر وضوحاً مما هي عليه؛ عالم ينقسم بسهولة إلى جهات متقابلة، وأحكام جاهزة، وحدود ثابتة بين الخير والشر، بين الضحية ومن تسبب في الألم.

أما الآن، فقد أصبحت ترى المساحات التي لا تظهر في الضوء؛ المناطق الرمادية التي تختلط فيها الحكايات، حيث يحمل كل إنسان جزءاً من مأساته، وجزءاً من مسؤوليته، وجزءاً من الأسئلة التي لا تجد طريقها إلى الإجابة.

لكنها اكتشفت أن الحياة أكثر تعقيداً من ذلك.

أدركت أن اليقين المطلق قد يكون أحياناً ستاراً يحجب أكثر مما يكشف. فالإنسان حين يطمئن إلى امتلاكه الحقيقة كاملة، قد يفقد القدرة على رؤية التفاصيل الصغيرة، تلك المساحات الخفية التي تختبئ فيها حكايات الآخرين. يصبح الحكم أسرع من الفهم، والتصنيف أسبق من الإصغاء.

أما الآن، فقد أصبحت أكثر تواضعاً أمام الحياة. لم تعد تبحث عن حقيقة مكتملة تقف في جهة واحدة، ولا عن إجابات تفصل البشر إلى خانات واضحة. بدأت ترى الإنسان كما هو؛ كائناً يحمل داخله تناقضاته، خوفه وشجاعته، ضعفه وقوته، رغبته في النجاة وأخطاؤه التي لا تنفصل عن رحلته.

لم تعد ترى العالم بلونين فقط.

أصبح أمام عينها امتداد واسع من الدرجات، مناطق لا يمكن اختصارها بكلمة واحدة أو حكم سريع. كانت هذه الرؤية الجديدة تمنحها قدرة أكبر على الانتظار، وعلى الإصغاء، وعلى الاقتراب من الآخرين دون أن تضعهم في قوالب جاهزة. فقد أدركت أن كل إنسان يحمل خلف وجهه قصة طويلة من الظروف والاختيارات والجروح التي لا يراها أحد.

لم يعد الحكم على الآخرين بالنسبة إليها علامة على المعرفة، وإنما تذكيراً بحدود ما يعرفه الإنسان عن حياة لم يعيشها.

كانت تعرف الآن أن الحكمة لا تسكن في امتلاك الإجابات الجاهزة، وإنما في شجاعة مواجهة الأسئلة التي لا تنتهي. فبعض الأسئلة لا تأتي لتطلب حلاً، وإنما لتعيد تشكيل الطريقة التي ننظر بها إلى أنفسنا والعالم.

وفي صمت الغرفة، وقفت أمام المرأة طويلاً.

كانت تشعر بأنها لا تنظر إلى المرأة نفسها التي غادرتها قبل هذه التجربة.

كانت ربما القديمة تعيش في عالم أكثر ترتيباً، عالم كانت تظن أن قوانينه قابلة للفهم، وأن الفوضى مجرد استثناء عابر. كانت تبحث عن حدود واضحة بين الأشياء، وعن مسافات آمنة تفصلها عن الألم الذي تدرسه.

أما المرأة التي وقفت أمام المرأة الآن، فقد جاءت من مكان آخر. كانت تحمل أثراً من الأرصفة، ومن الأصوات المنخفضة، ومن الوجوه التي مرت أمامها ثم بقيت داخلها. أصبحت أكثر قدرة على مواجهة الحقائق القاسية دون أن تهرب منها، وأكثر استعداداً للنظر إلى الجرح دون أن تغلق عينيها.

لم تعد تبحث عن عالم خالٍ من الألم.

كانت تبحث عن المعنى الذي يمكن أن يولد من داخله.

بدأت ترى الجمال في لحظات الضعف، والضيء في الأماكن التي يظن الناس أنها غارقة في العتمة، والأسئلة التي لا تجد جواباً بوصفها جزءاً من رحلة الإنسان لا عائقاً أمامها.

لم تصبح أقوى لأنها تخلصت من هشاشتها، وإنما لأنها تصالحت معها. عرفت أن الضعف جزء من التجربة الإنسانية، وأن الاعتراف به قد يكون الطريق الأول نحو فهم الآخرين.

كانت تعرف أن الرحمة ليست انكساراً، وإنما طاقة تمنح الإنسان القدرة على البقاء إنساناً وسط عالم قد يدفعه أحياناً إلى القسوة. إنها القوة التي تسمح له بأن يرى ألم الآخرين دون أن يغرق فيه، وأن يواجه صعوبة الحياة دون أن يفقد قلبه.

وفي ذلك وجدت ربما عزاءها.

وجدت معنى جديداً لما تعيشه.

ووجدت نفسها مرة أخرى.

غير أنها لم تجد النفس التي تركتها خلفها. وجدت امرأة أخرى خرجت من قلب التجربة، تحمل آثارها كما يحمل المسافر علامات الطريق. امرأة تعرف أن بعض الجروح لا تأتي لتغلق الأبواب، وإنما لتفتح نوافذ لم تكن مرئية من قبل.

كانت تعرف أنها ستعود إلى عملها الصحفي، وأنها ستكتب عن كل ما رأيته وسمعته وعاشته. لكنها كانت تدرك أيضاً أن القلم الذي ستضعه بين أصابعها لن يكون القلم نفسه الذي حملته سابقاً.

فالكلمات التي تخرج من تجربة حقيقية لا تعود مجرد كلمات.

إنها تحمل أثراً من الطريق الذي عبره الإنسان قبل أن يكتبها.

كان قلمها القديم بارعاً في نقل الأخبار، وفي ترتيب الوقائع، وفي صياغة الجمل التي تليق بالصحف الرسمية. كان يعرف كيف يصف الأحداث، وكيف يحافظ على المسافة المطلوبة بين الصحفي والموضوع الذي يكتب عنه.

لكنه كان قلماً بارداً.

قلماً يقف أمام الحقيقة ولا يدخل إليها.

أما القلم الذي ستمسكه الآن، فقد وُلد من تلك الأيام التي عاشتها على الأرصفة، من أصوات الباصات التي حملت همسات الغرباء، ومن الأيدي التي امتدت إليها، ومن العيون التي لم تكن تطلب المال وحده، إنما كانت تبحث عن لحظة اعتراف بأنها ما زالت مرئية في هذا العالم.

لن تكتب هذه المرة عن الفقر بوصفه رقماً في جدول، ولا عن التسول بوصفه ظاهرة تُشرح من مسافة آمنة. ستكتب عن الإنسان.

عن الحكايات التي تختبئ خلف الأرقام، وعن الأرواح التي تختصر أحياناً في يد ممدودة، أو نظرة مرتجفة، أو صوت خافت يحاول أن يصل إلى أحد.

ستكتب من قلب التجربة، لا من خارجها.

من المسافة التي تتداخل فيها الحقيقة مع الألم، والملاحظة مع المعاشية، والكتابة مع المسؤولية تجاه أولئك الذين لا يجدون من يحمل أصواتهم.

جلست أمام مكتبها الصغير في غرفتها، وأمسكت بالقلم. تأخرت الكلمات.

كأنها كانت تعرف أن ما سيخرج هذه المرة ليس مقالاً عابراً، وإنما شهادة تحمل وجوه الذين مروا أمامها، وتحمل ثقل الأسئلة التي تركوها خلفهم.

لم تكن تخاف الكتابة، لكنها شعرت بثقلها. كانت تعرف أن كل كلمة ستضعها على الورق ستصبح أمانة، وأن كل جملة ستكون محاولة للوفاء لأولئك الذين سمعتهم للحظات، ثم بقوا معها إلى الأبد. كانت تعرف أن ما ستكتبه لن يكون سهلاً على الجميع.

فالقارئ اعتاد نصوصاً تخبره بما حدث، لا نصوصاً تجعله يقف داخل الحدث. والجهات الرسمية اعتادت صوراً مرتبة لا تزعج السكون، لا أسئلة تزيح الستار عن المساحات التي تُترك عادة في الظل. أما هي، فلم تعد قادرة على العودة إلى اللغة القديمة. لأنها لم تعد المرأة القديمة.

لقد رأت.

وعاشت.

واقتربت من وجوه كانت تمر أمامها سابقاً دون أن تعرف ما تخفيه. لم يعد بإمكانها أن تعبر بجانب الحقيقة ثم تواصل السير كأن شيئاً لم يحدث.

كانت تفكر في شكل الكتابة التي ستولد منها، في اللغة التي ستختارها، وفي الصوت الذي ستمنحه لمن لا صوت لهم. أدركت أنها لن تكتب تقريراً تقليدياً، لأن ما حدث لها لم يكن تجربة عادية.

ستكتب بصوت من جلس على الرصيف.

بصوت من رأى المدينة من مستوى آخر؛ من مستوى العيون التي ترى خطوات العابرين قبل أن ترى وجوههم.

ستكتب بعين من اكتشف الإنسان خلف الرقم، وبأذن من سمع الصمت المختبئ خلف الضجيج، وبقلب عرف أن خلف كل ظاهرة إنساناً ينتظر أن يُفهم.

وفي تلك اللحظة، عادت إليها كلمات الرجل العجوز في الباص:

«أنتِ الآن تعرفين... ولا يمكنكِ أن تنسي. هذه المعرفة هي
مسؤوليتكِ.»

لم تعد المسؤولية بالنسبة إليها فكرة تُقال، وإنما طريقاً يجب أن
يُسلَك.

طريقاً يجعلها كاتبة مختلفة.

أن تبحث عن المعنى خلف الخبر.

أن ترى الألم خلف المشهد.

أن تظل تسأل:

من الذي لا يسمعه أحد؟

ومن الذي لم يجد بعد فرصة ليحكي قصته؟

كانت تعرف أن هذا الطريق لن يكون سهلاً. سيضعها أمام الآخرين،
وسيضعها أمام نفسها أيضاً.

وسیظل يطرح عليها الأسئلة ذاتها:

هل كنت صادقة بما يكفي؟

هل استطاعت الكلمات أن تحمل ما رآته؟

هل يمكن للحبر أن يغيّر شيئاً في عالم اعتاد أن ينسى بسرعة؟

كانت تعرف أن هذه الأسئلة سترافقها طويلاً.

ولم تعد تخشاها.

فقد أصبحت جزءاً من صوتها الجديد، ومن الكتابة التي ستخرج منها، ومن الحياة التي بدأت يوم قررت أن ترى العالم كما هو، لا كما كانت ترغب أن يكون.

وبدأت ربما تكتب.

بطيء، وكأنها لا تضع الكلمات على الورق، وإنما تضع أجزاءً من روحها. كانت تتوقف عند كل جملة، تنظر إليها طويلاً، تختبر قدرتها على حمل المعنى، وتتساءل إن كانت تستطيع أن تكون وفية لما عاشته. لم تعد الكتابة عملية ذهنية باردة.

أصبحت أقرب إلى اعتراف طويل؛ اعتراف بما رأته، وما شعرت به، وما تغير في أعماقها.

كانت تكتب عن الأرصفة التي لم تعد مجرد أماكن للعبور، وإنما مساحات صغيرة تتجمع فيها حكايات منسية. كانت تكتب عن الباصات التي لم تعد مجرد وسائل نقل، وإنما عوالم عابرة تحمل وجوهاً وقصصاً لا يعرف بعضها بعضاً.

كانت تكتب عن الأيدي الممدودة التي لم تعد تراها كطلب للمال فقط، وإنما كإشارة صامتة تبحث عن عين تلتفت، وعن قلب يصغي.

كانت تكتب عن العملات التي تسقط في الأكواب، وعن النظرات التي تمر فوق المتسولين سريعاً، كأنهم جزء من خلفية المدينة لا من حياتها.

كانت تكتب عن الرجل الغامض.

عن كلماته التي ما زالت عالقة في ذاكرتها: «بزنس... نظام... تنظيم.»
كانت تكتب عن تلك السيارة الفارحة التي رأتها، عن التناقض
الصارخ بين لمعانها وبين وجوه الفقراء الذين يقفون على الأرصفة، عن
العالم الخفي الذي اكتشفته خلف المشهد الظاهر، العالم الذي جعل
من حاجة الإنسان فرصة، ومن ضعفه سلعة، ومن فقره مصداً للربح.
وكانت تكتب عن نفسها.

عن المرأة التي دخلت التجربة وهي تظن أنها تراقب الآخرين، ثم
اكتشفت أنها كانت تراقب نفسها. عن الصحفية التي اعتقدت أنها تفهم
العالم من خلال التقارير والتحليلات، ثم وجدت نفسها مضطرة إلى
إعادة تعريف كل شيء بعد أن عاشت جزءاً من الحقيقة بيديها وقلوبها
وجسدها.

كانت تكتب عن خوفها.

عن ارتباكها.

عن لحظات شعرت فيها بأنها فقدت هويتها بين شخصية الصحفية
وشخصية المتسولة، بين العالم الذي تنتمي إليه والعالم الذي دخلته.
كانت تكتب عن الرحلة التي نقلتها من المعرفة النظرية إلى المعرفة
التي تُحفر في الروح، من مراقبة الألم إلى الشعور به.

كانت تكتب كل ما رآته، وكل ما سمعته، وكل ما لم تستطع قوله في
حينه.

كانت تكتب وكأنها تشيد عالماً جديداً من الكلمات؛ عالماً لا يكتفي برسم ملامح الفقر، وإنما يحاول الاقتراب من المساحات الخفية التي تختبئ خلف تلك الملامح. عالماً تعيد فيه اكتشاف علاقتها بالحياة، وبالأخرين، وبالمراة التي تسكن داخلها.

وعندما انتهت، بقيت للحظات طويلة تنظر إلى الصفحات أمامها. لم تشعر بأنها أغلقت ملفاً صحفياً.

شعرت بأنها عثرت على شيء كان ينتظرها منذ زمن.

كان الأمر أشبه باستعادة جزء غائب من ذاتها، أو بالعثور على رسالة ظلت تحملها دون أن تعرف لمن كانت موجهة. كانت تدرك أن النص ما زال يحتاج إلى مراجعة، وأنه قد يفتح أبواباً من الجدل والأسئلة، لكنها كانت تعرف شيئاً واحداً لا يحتاج إلى برهان: أنه صادق.

يحمل صوتها الحقيقي.

يحمل أثر الطريق الذي مشت فيه.

يحمل التحول الذي حدث داخلها.

أدركت أن الكتابة لم تعد مجرد عمل تؤديه في ساعات محددة، وإنما أصبحت طريقة لترى العالم، ووسيلة لمقاومة النسيان، وجسراً يبقها قريبة من الإنسان الكامن فيها. أصبحت الكتابة المكان الذي تلجأ إليه كلما شعرت بأن المسافة بينها وبين الحياة تتسع، وكلما احتاجت إلى فهم ما تركته التجربة في روحها.

هناك وجدت عزاءها.

وهناك وجدت معنى جديداً لوجودها.

وهناك عادت إليها.

إلا أنها لم تعد تعثر على المرأة التي غادرت بيتها قبل أسابيع، وإنما على امرأة أخرى تشكلت في قلب التجربة؛ امرأة تعرف أن الجروح لا تأتي دائماً لتعلن النهاية، فقد تكون أحياناً ممرات سرية يتسلل منها الضوء إلى أكثر الأماكن عتمة في الداخل.

جلست ريمًا في هدوء غرفتها، تحديق في الصفحات التي كتبتها، وتشعر بأن الكلمات تجاوزت حدود الورق.

كانت أجزاء منها.

كانت آثاراً للأرصفة التي جلست عليها، وللأصوات التي عبرت إليها، وللوجوه التي بقيت معلقة في ذاكرتها.

كانت تعرف أنها كتبت عن الفقر، وعن التسول، وعن عالم يحول حاجة الإنسان إلى مساحة للاستغلال، وعن التناقض الصارخ بين ثراء يملك أدوات القوة وفقر يعيش في ظل العجز.

إلا أنها كانت تعرف أيضاً أنها لم تكتب عن الفقر كظاهرة تُحلل من الخارج.

كتبت عنه كحالة إنسانية تُعاش من الداخل.

عن اللحظة التي لا يفقد فيها الإنسان ما يملكه فقط، وإنما يفقد شيئاً أكثر خفاءً: إحساسه بذاته، وكرامته، وحرية، وشعوره بأنه ما زال قادراً على الإمساك بخيط حياته.

وفي لحظة هدوء عميقة، شعرت كأن ستاراً ثقيلاً كان يغطي رؤيتها
قد بدأ ينزاح ببطء.

لم تصل إلى إجابة سهلة.

وصلت إلى طريقة أخرى للنظر.

أدركت أن الفقر ليس رقماً في تقرير اقتصادي، ولا صورة عابرة تمر
في نشرة أخبار، ولا فراغاً في الموارد فقط.

إنه حالة تتسلل إلى أعماق الإنسان.

إنه الإحساس بأن الطرق تضيق، وأن الاحتمالات تنسحب واحداً
تلو الآخر، وأن المستقبل يقف خلف باب لا يعرف المرء كيف يفتحه.

إنه أن يستيقظ الإنسان كل صباح وهو يحمل السؤال نفسه: كيف
سيؤمن حاجاته؟ كيف سيحمي من يحب؟ وكيف سيبقى محتفظاً
بصورة مقبولة عن نفسه أمام المرأة؟

عادت إلى الوجوه التي رأتها في الباصات، وإلى الأيدي التي امتدت
نحوها، وإلى الأصوات التي طلبت المساعدة.

هذه المرة لم ترها بالطريقة القديمة.

لم تر الجوع وحده.

رأت ما يقع خلفه.

رأت الخوف.

رأت هشاشة الأمان.

رأت ذلك التآكل البطيء للكرامة؛ التآكل الذي لا يحدث في لحظة واحدة، وإنما يتجمع بصمت، يوماً بعد يوم، حتى يجد الإنسان نفسه بعيداً عن الصورة التي كان يعرفها عن ذاته.

أدركت أن الفقر لا ينتزع من الإنسان المال فقط.

إنه ينتزع أحياناً القدرة على الاختيار.

يأخذ منه مساحة الحلم، وحق التخطيط، والشعور بأنه صاحب قرار في حياته.

فعندما تضيق الخيارات حتى تختفي تقريباً، يصبح البقاء هو المشروع الوحيد، ويصبح الإنسان مشغولاً بإخماد أزمات يومه أكثر من قدرته على بناء غده.

وربما كان هذا هو الوجه الأكثر قسوة للفقر.

ليس الجوع وحده.

ولا الحاجة وحدها.

إنه الإحساس بأن الحياة خرجت من بين يديه، وأن الأيام لم تعد تسير معه، وإنما تسحبه في اتجاهات رسمها آخرون. أن يتحول الإنسان إلى متلقٍ لما يحدث، ينتظر القادم، دون أن يشعر بأنه قادر على صناعة شيء من غده.

كانت ربما تتخيل حياة أولئك الذين رأتهم.

كيف يفتحون أعينهم كل صباح على أسئلة لا تحمل إجابات.

كيف يواجهون نظرات العابرين.

كيف يفسرون لأطفالهم سبب غياب أشياء تبدو عادية في حياة الآخرين.

كيف يحاولون الاحتفاظ بما تبقى من كرامتهم في عالم يطلب منهم، بصمت وقسوة، أن يتخلوا عن أجزاء صغيرة من أنفسهم كل يوم. كانت تشعر أن فقدان السيطرة على الحياة قد يكون أكثر إيلاماً من الفقر المادي ذاته. فالجوع قد يهدأ.

والحاجة قد تجد طريقاً إلى التخفيف.

أما الشعور بأن الإنسان لا يملك اتجاه حياته، وأنه مجرد رقم في سجل أو وجه يذوب وسط الزحام، فهو الجرح الذي يبقى مفتوحاً في مكان لا تراه العيون.

وعندها فقط، اقتربت ربما من الحقيقة التي كانت تبحث عنها منذ البداية:

أن الفقر لا يأخذ من الإنسان ما يحمله في جيبه فقط.

إنه يصل أحياناً إلى الأماكن الأعمق.

إلى إحساسه بقيمته.

إلى ثقته بقدرته على التغيير.

إلى إيمانه بأنه يستحق حياة مختلفة.

أدركت أن الفقر لا يسكن غياب المال وحده، وإنما قد يسكن غياب

الفرص، وتراجع الأمل، وانحسار القدرة على أن يكون الإنسان شريكاً في صناعة حياته.

وأن اللحظة الأكثر قسوة ليست حين تصبح اليد فارغة، وإنما حين يبدأ الإنسان في الشك بأنه ما زال يملك مكاناً في هذا العالم.

فحين يفقد الإنسان هذا الشعور، لا يعود الفقر حالة خارجية فقط؛ يصبح مسافة تتسع بينه وبين ذاته.

وهذا هو الفقر الذي يترك أعمق الآثار.

الفقر الذي لا يظهر في الصور.

الفقر الذي يعيش في الداخل.

كانت ربما تفكر في الطريق الذي قطعت منذ اللحظة التي قررت فيها خوض هذه التجربة، وفي المرأة التي وقفت الآن أمام المرأة. كانت تشعر بأن شيئاً عميقاً تبدل فيها؛ شيئاً لا يمكن اختزاله في كلمات أو قياسات.

أصبحت ترى العالم بعينين مختلفتين.

عينين لا تكتفيان بقراءة السطح، وإنما تحاولان الاقتراب من المساحات الصامتة خلف الوجوه، وخلف الكلمات، وخلف المعاناة التي لا تجد طريقها إلى الكلام.

تذكرت كيف كانت تمر سابقاً بجانب المتسولين في الشوارع.

كانت تراهم، ومع ذلك لم تكن تصل إليهم حقاً.

كانت تلاحظ وجودهم، لكنها لم تكن تشعر بثقل الأيام التي يحملونها، ولا بالقصص المختبئة خلف الأيدي الممتدة والنظرات المنكسرة.

أما الآن، فقد تغير المشهد.

أصبحت ترى الإنسان قبل الحالة.

وترى الحكاية قبل الصورة.

وترى الروح قبل المظهر.

كانت تشعر بأنها اكتسبت قدرة جديدة على التعاطف؛ تعاطف لا يأتي من موقع الشفقة العابرة، وإنما من محاولة الفهم والاقتراب. أصبحت أكثر إصغاءً للأشياء التي لا تُقال، وأكثر انتباهاً للألم الذي يختبئ خلف الكلمات القليلة، وأكثر إدراكاً أن كل إنسان يحمل معركة لا يراها أحد.

ومع ذلك، كانت تعرف أن هذه الرؤية الجديدة لم تأتِ إليها مجاناً. فالمعرفة قد تكون نوراً يفتح الطريق، وقد تكون حملاً يكشف ما كان مستوراً.

كلما اتسعت الرؤية، ضاقت مساحة الهروب.

كانت تدرك أن التعاطف الحقيقي يحمل معه وجعاً خاصاً؛ وجع أن يشعر الإنسان بثقل أحزان الآخرين، وأن يعرف أن بعض الجراح أكبر من قدرته على مداواتها، وأن العالم لا يتغير دائماً بالسرعة التي يحلم بها القلب.

أصبح وعيها الجديد حملاً تمشي به، لكنه كان حملاً لا تستطيع التخلي عنه.

فقد عرفت أن الجهل قد يمنح راحة مؤقتة، أما المعرفة فتضع الإنسان أمام مسؤوليته.

كانت تعرف أنها لن تعود إلى حياتها القديمة كما كانت.

لم تعد المرأة التي تنظر إلى العالم من خلف مسافة آمنة، وتحلل الفقر عبر الأرقام والتقارير والنظريات.

لقد أصبحت داخل القصة التي كانت تكتب عنها.

لم يعد ممكناً أن تفصل نفسها عن أولئك الذين كانوا يوماً موضوعاً للبحث أو عنواناً في خبر.

لقد رأت.

وعرفت.

وعاشت.

وكانت هذه الأشياء الثلاثة كافية لتترك أثراً لا يزول.

كانت تعرف أنها ستحمل هذا الإدراك معها طوال حياتها.

سيعود إليها كلما رأت إنساناً ينتظر المساعدة في زاوية شارع، وكلما سمعت حكاية عن الحاجة، وكلما أمسكت بقلمها لتكتب عن البشر وما يحملونه من أثقال.

سيذكرها دائماً بأن الفقر ليس فراغاً في الجيب فقط؛ فقد يكون فراغاً في الفرص، وانكساراً في الإحساس بالقيمة، وتهديداً للكرامة

والحرية، ولحق الإنسان في أن يعيش الحياة التي تليق بإنسانيته.
أدركت أن مواجهة الفقر لا يمكن أن تختزل في لغة الاقتصاد وحدها.
فالأرقام لها ضرورتها، والمساعدات لها أثرها، والمشاريع التنموية
تفتح بعض الأبواب، غير أن جوهر الحكاية كان يقبع في مكان أعمق من
الجداول والخطط.

كانت المسألة إنسانية قبل أن تكون مادية.

معركة من أجل استعادة الكرامة.

استعادة القدرة على الاختيار.

استعادة ذلك الشعور البسيط والثمين بأن الإنسان ليس عبئاً على
هذا العالم، ولا رقماً صامتاً في تقرير، ولا وجهاً يمر في الشارع ثم
يختفي من ذاكرة الآخرين.

كانت ربما تدرك أن مواجهة الفقر تبدأ من لحظة يستعيد فيها
الإنسان صورته أمام نفسه، ومن لحظة يتعلم فيها المجتمع أن ينظر إلى
أولئك الذين يعيشون على الحواف، لا كظلال بعيدة، وإنما كأرواح لها
حكاياتها وأحلامها وخساراتها.

وفي هذه الفكرة وجدت معنى رحلتها كلها.

لم تدخل عالم المتسولين فقط لتعرف كيف يعيشون.

دخلته لتكتشف شيئاً أكثر عمقاً؛ أن إنسانية الإنسان لا تُقاس بما
يملك، وإنما بقدرته على أن يرى الآخر، وأن يقترب من ألمه، وأن
يدافع عن حقه في أن يُعامل كإنسان كامل، لا كصورة تختصرها الحاجة

أو الظروف.

كانت تعرف أن الرحلة لم تصل إلى نهايتها.

ربما كانت الآن تبدأ.

هذه المرة كانت تحمل معها عيينين مختلفتين.

عيينين رأتا ما كان مختلفياً خلف المشهد.

وقلباً اتسعت مساحته بما يكفي ليحمل وجع الآخرين دون أن

يضيع.

وقناعة استقرت في أعماقها:

أن الإنسان، حين يرى معاناة الآخرين بصدق، لا يعود الشخص

نفسه الذي كان قبل تلك اللحظة.

